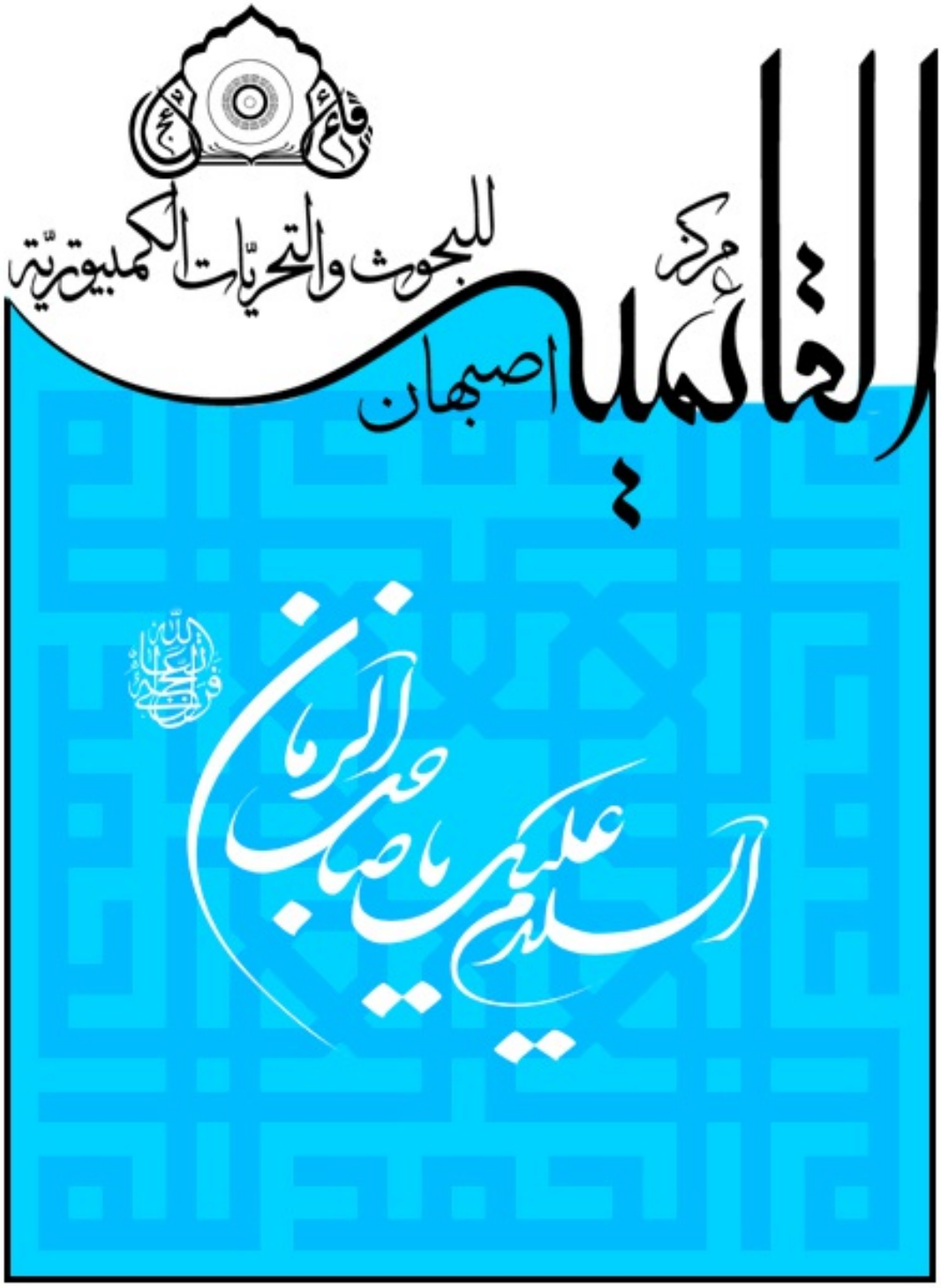

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الانسان بين الجبر و التفويض

جعفر السبحانی

بسم الله الرحمن الرحيم

الانسان بين الجبر و التفويض

كاتب:

آيت الله العظمى جعفر سبحانى (دام ظله)

نشرت فى الطباعة:

موسسه‌الامام‌الصادق (ع)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الانسان بین الجبر و التفویض ----- ۶
اشارة ----- ۶
مقدّمة المؤلف ----- ۶
الإنسان بین الجبر والتفویض ----- ۶
۱- الجبر علی مسرح التاریخ الإسلامی ----- ۷
۲- أحادیث لا تفارق الجبرَ قید شعرة ----- ۱۰
۳- مضاعفات القول بالجبر ----- ۱۱
۴- شبهات وحلول ----- ۱۲
۵ - هل الإیمان بالقدر رکن من أرکان الإیمان؟ ----- ۲۰
۶- التفویض ومضاعفاته ----- ۲۱
۷- الأمر بین الأمرین ----- ۲۲
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۵

الانسان بين الجبر و التفويض

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی جعفر، - ۱۳۰۸

عنوان و نام پدیدآور : الانسان بین الجبر و التفویض تالیف جعفر السبحانی مشخصات نشر : قم موسسه الامام الصادق علیه‌السلام ۱۴۲۴ق = ۱۳۸۲.

مشخصات ظاهری : ۱۰۰ ص ۵/۱۱ X۱۶س‌م فروست : (سلسله المسائل العقائدیه۲)

شابک : ۹۶۴-۳۵۷-۱۱۸-۱۳۵۰۰ریال ؛ ۹۶۴-۳۵۷-۱۱۸-۱۳۵۰۰ریال یادداشت : عربی

موضوع : جبر و اختیار

شناسه افزوده : موسسه امام صادق ع

رده بندی کنگره : BP۲۱۹/۶/س۲الف۸ ۱۳۸۲

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۴۶۵

شماره کتابشناسی ملی : م۸۲-۳۶۰۰

مقدّمة المؤلف

مقدّمة المؤلف بسم الله الرحمن الرحیم الحمد للّه الذی حسرت عن معرفة کماله، عقول الأولیاء، وعجزت عن إدراک حقیقته أفهام العلماء، واحد لا شریک له، لا یُشبهه شیء لا فی الأرض ولا فی السماء ;والصلاة والسلام علی نبیّه الخاتم، أفضل خلائقه وأشرف سفرائه، وعلی آله البررة الأصفیاء، والأئمّة الأتقیاء. أمّا بعد فغیر خفیّ علی النابه انّ للعقیدة ـ علی وجه الإطلاق ـ دوراً فی حیاة الإنسان أیسره انّ سلوکه ولید عقیدته ونتاج تفکیره، فالمواقف التی یتّخذها تملیها علیه عقیدتُه، والمسیر الذی یسیر علیه، توحیه إلیه فکرته. إنّ سلوک الإنسان الذی یؤمن بإله حیّ قادر علیم، یری ما یفعله، ویحصی علیه ما یصدر عنه من صغیرة وکبیرة، یختلف تماماً عن سلوک من یعتقد أنّه سیّد نفسه وسیّد الکون (۴)

الذی یعیش فیه، لا یری لنفسه رقیباً ولا حسیباً. ومن هنا یتّضح أنّ العقیدة هی رکیزة الحیاة، وأنّ التکالیف والفرائض ـ التی نعبّر عنها بالشریعة ـ بناء علیها، فالعقیدة ترتبط ارتباطاً وثیقاً بالروح والعقل، فی حین ترتبط الشریعة والأحکام بألوان السلوک والممارسات. ولأجل هذه الغایة قُمنا بنشر رسائل موجزة عن جوانب من العقیدة الإسلامیة، ورکّزنا علی أبرز النقاط التی یحتدم فیها النقاش. وبما أنّ لکلّ علم لغته، فقد آثرنا اللغة السهلة، واخترنا فی مادة البحث ما قام علیه دلیل واضح من الکتاب والسنّة، وأیّده العقل الصریح ـ الذی به عرفنا اللّه سبحانه وأنبیاءه ورسله ـ حتّی یکون أوقع فی النفوس، وأقطع لعذر المخالف. جعفر السبحانی قم ـ مؤسسة الإمام الصادق ـ علیه السَّلام ـ

الإنسان بین الجبر والتفویض

الإنسان بین الجبر والتفویض إنّ للشخصیة الإنسانیة أبعاداً مختلفة، ومن تلک الأبعاد کون الإنسان فاعلاً مختاراً فیما یفعل أو یترک، أو کونه مسیّراً قد رُسِم مصیرُ حیاته بید القَدَر أو عامل آخر ـ کما سیوافیک ـ ولا محیص له إلّا السیر فی الطریق الذی خُطّ له. مع انّ دراسة هذا البعد من أبعاد الشخصیة الإنسانیة دراسة مسألة فلسفیة محضة یَلجها کبارُ الحکماء والفلاسفة عبْر القرون ولهم فیها آراء

وأفكار، لكنّها و فى الوقت نفسه مسألة يشتاق إلى فهمها عامّة الناس وقلّما وجدت فى حياة (۶)

الإنسان مسألة لها تلك الميزة، وفى الحقيقة هى من إحدى المسائل الأربع التى يتطلّع إلى فهمها الجميع ألا وهى: ۱. من أين جاء إلى الدنيا؟ ۲. لماذا جاء إليها؟ ۳. إلى أين يذهب؟ ۴. وهل هو فى أعماله مخيّر أو مسير؟ ولأجل ذلك لا يمكن تحديد الزمن الذى طُرِحت فيه مسألة الجبر والاختيار، كما لا يمكن تحديد مكانها، وإنّ باذرها هل هو إفريقى أو رومىّ أو هندى أو صينى أو إيرانى؟ وعلى كلّ تقدير فللمسألة جذور عميقة فى تاريخ حياة الإنسان. ثمّ إنّ الآراء المطروحة فى المسألة تدور على محورين: ۱. الإنسان مسيّر لا مخيّر، مجبور فى أفعاله وليس بمختار. ۲. الإنسان مخيّر فى أفعاله لا مسيّر، مختار فيها وليس (۷)

بمجبور. ولكلّ من الرأيين قائل ودليل يعضد رأيه، إلاّ أنّ المهم هو الوقوف على الرأى السائد حين نزول الوحى على النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ، فالسير فى الحديث والتاريخ يُثبت بأنّ الرأى العام فى الجزيرة العربية قبل البعثة كان هو الجبر، وقد بقيت رسوبات تلك الفكرة بعد البعثة وحتى رحيل النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ. ولأجل تبيين هذا الجانب من جوانب البحث نعقد الفصل التالى. (۸)

۱- الجبر على مسرح التاريخ الإسلامى

۱- الجبر على مسرح التاريخ الإسلامى إنّ التأمّل فى عقائد العرب فى الجاهلية يُثبت بأنّهم أو طائفة منهم كانوا معتقدين بالتقدير السالب للاختيار عن الإنسان، يقول سبحانه: (سَيَقُولُ الّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمنا مِنْ شَىء كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذاقُوا بَأْسَنا قُل هَل عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْم فَتُخرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ الظنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَخرُصُون).(۱) وليست الآية، آية وحيدة تكشف عن عقيدة العرب فى العصر الجاهلى حول فعل الإنسان، بل هناك آية أو آيات _____

۱ - الأنعام:۱۴۸. (۹)

أُخرى تشير إلى عقيدتهم، يقول سبحانه: (وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءنا وَاللّهُ أَمرنا بِها قُلْ إِنَّ اللّهَ لا يأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلى اللّه ما لا تَعْلَمُون).(۱) فقولهم:(واللّهُ أَمَرنا بِها)إشارة إلى أنّ عبادة الوثن أمر قدّره اللّه سبحانه وليس لنا الفرار ممّا قُضى به، واللّه سبحانه يردّ على مزعمتهم بقوله:(قُلْ إِنّ اللّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلى اللّه ما لا تَعْلَمُون)، فلا يأمر بها ولا يقدِّرها بالمعنى الذى تدّعون أى السالب للاختيار. وأمّا جذور هذه العقيدة وانّها كيف تسرّبت إلى الجزيرة العربية حتّى سادت على المشركين فقد ظلّت مجهولة؟ والعجب انّ رسوبات فكرة الجبر بقيت بعد بزوغ نجم الإسلام وسادت حال حياة الرسول وبعد رحيله أيضاً. روى الواقدى فى مغازيه عن أُمّ الحارث الأنصارية وهى تحدِّث عن فرار المسلمين يوم حنين قالت: مرّ بى عمر _____

۱ - الأعراف:۲۸. (۱۰)

ابن الخطاب منهزماً، فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر اللّه.(۱) و معنى ذلك انّه لم يكن دور للغزاة من المسلمين فى هزيمة حنين، وقد كانت الهزيمة تقديراً قطعياً من اللّه و لم يكن محيص من التسليم امامه. وهذا هو نفس الجبر لا يفترق عنه قيد شعرة، مع أنّه سبحانه يقول: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِى مَواطِن كَثيرة وَيَومَ حُنَين إِذْ أَعْجَبَتكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيئاً وَضاقَت عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرين).(۲) وقد أشار سبحانه إلى عامل الهزيمة وأنّه أمران: الأوّل: إعجابهم بكثرتهم، فاعتمدوا على الكثرة، مكان الاعتماد على اللّه سبحانه أوّلاً وعلى قواهم الذاتية ثانياً كما يقول: (إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرتكُم). الثانى: الانسحاب عن ساحة الحرب بدل الثبات، كما

---

۱ - المغازى:۳/۹۰۴ .

۲ - التوبة:۲۵ . (۱۱)

يقول سبحانه(ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرين) مع أنّهم أُمروا بالثبات كما يقول تعالى: (يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحفاً فَلا تُوَلُّوهُم

الأدْبار).(۱) والعجب انّ هذه العقيدة(القدر السالب للاختيار) كانت سائدة بعد رحيل الرسول وباقية فى اذهان الصحابة، وهذا السيوطى ينقل عن عبد اللّه بن عمر أنّه جاء رجل إلى أبى بكر، فقال: أرأيت الزنا بقدر؟ قال: نعم، قال: فإنّ اللّه قدّره علىّ ثمّ يعذّبنى؟ قال: نعم يا بن اللخناء أما واللّه لو كان عندى إنسان أمرته أن يجأ أنفك.(۲) لقد كان السائل فى حيرة من أمر القدر فسأل الخليفة عن كون الزنا مقدَّراً من اللّه أم لا؟ فلما أجاب الخليفة بنعم، استغرب من ذلك، لأنّ العقل لا يسوّغ تقديره سبحانه شيئاً سالباً للاختيار عن الإنسان فى فعله أو تركه ثمّ تعذيبه عليه، ولذلك قال: «فانّ اللّه قدّره علىّ ثمّ يعذبنى؟!» فعند ذاك أقرّه الخليفة على ما استغربه، وقال: نعم يابن اللخناء. _____

۱ - الأنفال:۱۵.

۲ - تاريخ الخلفاء للسيوطى:۹۵. (۱۲) استغلال الأُمويّين للقدر إنّ طبيعة الحكومات الاستبدادية هى تبرير كلّ ما يسود المجتمع من الفقر والظلم والاعتساف بعامل خارج عن دائرة حكمهم كقضاء اللّه سبحانه وقدره حتّى لا يعترض عليهم معترض. ومن هنا وجد التفسيرُ الخاطئ للدين طريقَه إلى المجتمع الحاضر وانّه وسيلة لدعم الجهاز الحاكم، وقد استغل الشيوعيون والعلمانيُّون هذه الفكرة لإبعاد الناس عن الدين ولكنّهم خلطوا سهواً أو عمداً بين كون الدين الواقعى ـ الذى أُلهم على قلوب الأنبياء ـ الّذى لا يكون مسانداً للجهاز الظالم ـ و بين التفسير الباطل للدين، إذ كيف يكون الدين مسانداً للسلطات الزمنية الجائرة مع أنّه يأمر بالعدل و الاحسان وينهى عن الظلم والفحشاء؟! يقول إمام المسلمين أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ راوياً عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ : «لن تقدس أُمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوى غير (۱۳)

متعتع».(۱) ۱. انّ الأمويين استغلّوا الجبر لإرساء قواعد حُكْمِهم حتى أنّ معاوية لمّا نصب ولده يزيد خليفة للمسلمين وسلّطه على رقاب المسلمين اعترضت عليه أُمّ المؤمنين عائشة، فأجابها معاوية: إنّ أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم.(۲) ۲. وبهذا أيضاً أجاب معاوية عبد اللّه بن عمر عند ما سأل معاوية عن تنصيبه يزيدَ للحكم؟ بقوله: إنّى أُحذرك أن تشق عصا المسلمين وتسعى فى تفريق ملئهم وأن تسفك دماءهم، وانّ أمر يزيد قد كان قضاءً من القضاء وليس للعباد خيرة من أمره.(۳) ۳.وقد سرى هذا الاعتذار إلى غير الأمويّين من الذين ساروا فى ركب الخلفاء، فهذا هو عمربن سعد بن أبى وقاص، _____

۱ - نهج البلاغة، قسم الرسائل برقم۵۳.

۲ - الإمامة والسياسة لابن قتيبة :۱/۱۶۷.

۳ - الإمامة والسياسة:۱/۱۷۱. (۱۴)

قاتل الإمام الشهيد الحسين ـ عليه السَّلام ـ فلمّا اعترض عليه عبد اللّه بن مطيع العدوى بقوله: اخترت همدَان والرىَ على قتل ابن عمك؟! فقال عمر: كانت أُمور قُضِيتْ من السماء و قد أعذرت إلى ابن عمى قبل الوقعة فأبى إلّا ما أبى.(۱) ۴. وقد برّرتْ عائشة أُم المؤمنين خلافَها مع على ـ عليه السَّلام ـ بالقضاء والقدر، على ما رواه الخطيب عن أبى قتادة فعندما ذكر قصة الخوارج فى النهروان لعائشة أجابته أُمّ المؤمنين بقولها: وما يمنعنى ما بينى وبين علىّ أن أقول الحق، سمعت النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ يقول: «تفترق أُمّتى على فرقتين تمرق بينهما فرقة محلّقون رؤوسهم، مخفّون شواربهم، أزرهم إلى أنصاف سوقهم، يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم يقتلهم أحبهم إلىّ، وأحبهم إلى اللّه»، قال: يا أُمّ المؤمنين فأنت تعلمين هذا فلم كان الذى منك؟! قالت: يا أبا قتادة وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً، وللقدر أسباب!!.(۲) _____

۱ - طبقات ابن سعد:۵/۱۴۸، ط بيروت.

۲ - تاريخ بغداد:۱/۱۶۰. (۱۵) التقدير المساوى للجبر عقيدة مستوردة ومن العوامل التى صارت سبباً لتركيز فكرة الجبر بين المسلمين هى الأساطير التى حاكها الأحبار والرهبان ونشروها بين المسلمين حول القضاء والقدر، فهذا هو حماد بن سلمة يروى عن أبى سنان قال: سمعنا وهب بن منبه، قال: كنتُ أقول بالقدر حتّى قرأت بضعة وسبعين كتاباً مِنْ كتب الأنبياء فى كلّها: من جعل لنفسه شيئاً من

المشيئة فقد كفر، فتركتُ قولى.(۱) والمراد من القدر فى قوله: «كنت أقول بالقدر» ليس القول بتقدير اللّه سبحانه وقضائه، بل المراد هو القول بالاختيار والمشيئة للعبد كما يظهر من ذيل كلامه. وهذا النقل يعطى انّ القول بنفى الاختيار والمشيئة للإنسان، قد تسرّب إلى الأوساط الإسلاميهٔ عن طريق هذه الجماعهٔ وعن الكتب الإسرائيليهٔ أفيصحّ بعد هذا أن نعد

۱ - ميزان الاعتدال:۴/۳۵۳. (۱۶)

القول بنفى المشيئة للإنسان عقيدهٔ جاء بها القرآن والسنّهٔ النبويهٔ، ونكفّر من قال بالمشيئهٔ له ولو مشيئهٔ ظليهٔ تابعهٔ لمشيئته سبحانه، ونقاتل فى سبيل هذه العقيدهٔ؟! حديث «الفراغ من الأمر» بدعهٔ يهوديّهٔ يجد الباحث فى ثنايا الأحاديث وكلمات المحدّثين قولهم:«إنّ اللّه سبحانه قد فرغ من الأمر»، أى قد فرغ سبحانه من أمر التدبير والتكوين فلا يتغيّر ما قُدّر، ولا يتبدّل ما قضى به، وهو بظاهره نفس الجبر، إذ معناه انّه لا محيص للإنسان إلّا العمل بما قُدّر و قضى ولا يتمكّن من تغييره وتبديله، وبالتالى لا خيرهٔ للإنسان فى حياته فيما يختار أو يترك مع أنّه سبحانه يحكم على خلافه ويقول: (وَمَا كانَ لِرَسُول أَنْ يَأْتِىَ بِآيَهٔ إِلّا بِإِذْنِ اللّه وَلِكلِّ أَجل كتاب * يَمْحُوا اللّهُ ما يَشاءُ ويُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتاب).(۱) وهل يمحو إلّا ما أثبتَ؟! فلو كان قد فرغ من الأمر فما

۱ - الرعد:۳۸ـ ۳۹. (۱۷)

معنى محو ما أثبته وقدّره؟ كيف واللّه سبحانه مبسوط اليد لا يكبّله تقديره وقضاؤه، فله السيادهٔ على القضاء والقدر دونهما عليه؟! وهذا هو الثعلبى ينقل عن مجاهد قال: قالت قريش: «حينما أنزل (ما كان لرسول أن يأتى بآيهٔ إلّا بإذن اللّه) ما لنا نراك يا محمد تملك من شىء وقد فرغ من أمره، فأنزلت هذه الآيهٔ تخويفاً ووعداً لهم، أى إن يشأ أحدثها من أمر ـ إلى أن قال: ـ ويُحدث فى كلّ رمضان فى ليلهٔ القدر ويمحو ويُثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومسائلهم وما يؤتيهم ويُنسأهم له.(۱) وقد تطرق عن طريق تلامذهٔ الاحبار والرهبان انّه سبحانه يمحو ما يشاء و يثبت إلّا الحياهٔ والموت والشقاء والسعادهٔ فانّهما لا يتغيران، ونقله السيوطى عن غير واحد من

۱ - تفسير الثعلبى، المسمّى بالكشف والبيان:۵/۲۹۸ ; الدر المنثور:۴/۶۵۹ واللفظ للثانى. (۱۸)

الصحابهٔ والتابعين الذين كانوا يحسنون الظن باحبار اليهود ورهبان النصارى. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله تعالى: (يَمْحُوا اللّه ما يَشاء وَيُثبت...)قال: إلّا الحياهٔ والموت، والشقاء والسعادهٔ فانّهما لا يتغيّران.(۱) أخرج الطبرانى فى الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عمر: سمعت رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يقول: (يَمْحُوا اللّه ما يَشاءُ وَيُثْبِت): إلّا الشقوهٔ والسعادهٔ والحياهٔ والموت.(۲) وقد روى عن ابن عباس: قال: (يَمْحُوا اللّه ما يَشاء وَيُثبت) قال: «ذلك كلّ ليلهٔ القدر يرفع ويخفض ويرزق» أى غير الحياهٔ والموت والشقاوهٔ والسعادهٔ، فإنّ ذلك لا يزول.(۳) وأظنّ أنّ الروايهٔ مكذوبهٔ على لسان ابن عباس تلميذ الإمام أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ ، فإنّ الإمام ـ عليه السَّلام ـ وبيته الرفيع مجمعون

۱ - الدرّ المنثور:۴/۶۶۳، ۶۶۱، ۶۶۲.

۲ - الدرّ المنثور:۴/۶۶۳، ۶۶۱، ۶۶۲.

۳ - الدرّ المنثور:۴/۶۶۳، ۶۶۱، ۶۶۲. (۱۹)

على إمكان تغيير المصير حتّى السعادهٔ والشقاء بالأعمال الصالحهٔ والطالحهٔ. إنّ سيادهٔ القدر على مصير الإنسان على نحو يسلب عنه الاختيار ولا يتمكّن من تبديل ما قدّر إلى خلافه، نفس القول بالجبر وسيادته. إنّ هذا القول مرفوض عقلاً، وكتاباً، فإنّ إطلاق الكتاب فى المحو والإثبات، يعمّ الجميع حتّى الموت والحياهٔ والسعادهٔ والشقاء. إنّ قوم يونس قد غيّروا مصيرهم السيّئ بالتوبهٔ والعمل الصالح. يقول سبحانه: (فَلَولا كانَتْ قَريَهٔ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلّا قَومَ يُونُسَ لمّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الخِزْيِ فِى الحَياهِٔ الدُّنيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حين).(۱) ويدلّ على ذلك أيضاً الروايات المتضافرهٔ. أخرج ابن أبى شيبهٔ فى «المصنّف» وابن أبى الدنيا فى

۱ - يونس:۹۸. (۲۰)

الدعاء، عن ابن مسعود ـ رضى اللّه عنه ـ قال: ما دعا عبد قطّ بهذه الدعوات إلاّ وسّع اللّه له فى معيشته: يا ذا المن ولا يُمنُّ عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول لا إله إلاّ أنت، ظهر اللاجئين، وجار المستجيرين، ومأمن الخائفين، إن كنت كتبتنى عندك فى أُمّ الكتاب شقيّاً فامح عنى اسم الشقاء وأثبتنى عندك سعيداً...، ـ إلى أن قال ـ: فإنّك تقول فى كتابك الذى أنزلت (يَمحُوا اللّه ما يَشاء وَيُثبت وعِندَهُ أُمّ الكتاب).(۱)

۱ – الدر المنثور:۴/۶۶۱، و بهذا المضمون روايات أُخرى لاحظ ص ۶۶۳. (۲۱)

۲– أحاديث لا تفارق الجبرَ قيد شعرة

۲– أحاديث لا تفارق الجبرَ قيد شعرة إنّ اتّفاق المحدّثين على أنّ الصحيحين وبعدهما السنن الأربع، من أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم، عاق الكثير من المحقّقين من الخوض فيهما نقداً وتمحيصاً، ولولا هذا الاتّفاق، لقام المحقّقون بالنقد والتمحيص فيما كان مخالفاً للكتاب والسنّة النبوية القطعية والعقل الصريح، وها نحن نسرد فى المقام بعض ما جاء فى الصحيحين ما لا يفارق الجبر قيد شعرة وهو إمّا مؤوّل أو موضوع على لسان الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ . ۱. روى مسلم فى صحيحه عن زيد بن وهب، عن (۲۲)

عبد اللّه قال: حدّثنا رسول اللّه ـ وهو الصادق ـ أنّ أحدكم يجمع خلقه فى بطن أُمّه أربعين يوماً، ثمّ يكون فى ذلك علقة مثل ذلك، ثمّ يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك، ثمّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه و بينها إلاّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتّى ما يكون بينه و بينها إلاّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها.(۱) فعلى هذا لا يقدر الإنسان على إضلال نفسه ولا هدايتها كما لا يقدر على أن يجعل نفسه من أهل الجنة أو النار، ولو حاول لتحصيل شىء منها ، سبقَ الكتابُ حائلاً بينه و بين إرادته، وهذا هو نفس القول بأنّ الإنسان مسيّر لا مخيّر. ثمّ إنّ الإمام النووى الشارح لصحيح مسلم نظر إلى هذه الأحاديث بعين الرضا والقبول، فلما رأى انّها لا تفارق

۱ – صحيح مسلم:۸/۴۴، كتاب القدر. (۲۳)

الجبر قيد شعرة حاول تأويل قوله: «فيسبق عليه الكتاب» فى كلا الموضعين، وقال: «انّ هذا قد يقع فى نادر من الناس لا أنّه غالب فيهم». ثمّ إنّ من لطف اللّه تعالى وسعة رحمته انقلابُ الناس من الشر إلى الخير فى كثرة وأمّا انقلابهم من الخير إلى الشر ففى غاية الندور ونهاية القلة، وهو نحو قوله تعالى: «إنّ رحمتى سبقت غضبى وغلبت غضبى».(۱) يلاحظ عليه أوّلاً: بانّ حمل أحد الطرفين على الغلبة والطرف الآخر على وجه الندرة قسمة ضيزى فانّ ظاهر الحديث أنّ سبق الكتاب فى الطرفين سيّان. وثانياً: انّ الحديث ظاهر فى غلبة القدر على عمل الإنسان ونيته فربما يجعل الصالح طالحاً والطالح صالحاً، ولا صلة له بسبق رحمته على غضبه والظاهر انّ هذه الأحاديث حيكت على وفق عقائد اليهود الذين ذهبوا إلى انّ يده سبحانه مغلولة فبعد ما قضى، لا يتمكن من تغييره، غُلَّت

۱ – شرح صحيح مسلم للنووى:۱۶/۴۳۵. (۲۴)

أيديهم. ۲. وروى عنه أيضاً حذيفة بن أسيد يبلغ به النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول: يا رب أشقى أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أى رب أذكر أو أُنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثمّ تُطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص».(۱) فعلى هذا فالصحف الأُولى التى قُدِّر فيها مصير الإنسان مطوية لا تفتح فلا يزيد فيها شىء ولا ينقص، وهذا لا يختلف عن الجبر قيد شعرة. إنّ تفسير القضاء والقدر ـ اللّذين هما من المعارف العليا فى الإسلام ـ بالمعنى الوارد فى الرواية يجعل الإنسان مكتوف اليدين فى خضمِّ الحياة فيسلب عنه كلّ سعى فى طريق السعادة إذا كتب

من أهل الشقاء أو فى طريق الشقاء إذا كتب من أهل السعادة. _____

۱ - صحيح مسلم:۸/۴۵، كتاب القدر. (۲۵) ۳. روى عبد اللّه بن عمر، عن أبيه قال: يا رسول اللّه أرأيت ما نعمل فيه أمر مبتدع أو فيما قد فرغ منه؟ فقال: بل فيما قد فرغ منه، ياابن الخطاب وكلّ ميسر، أمّا من كان من أهل السعادة فإنّه يعمل للسعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنّه يعمل للشقاء. وفى رواية قال: لمّا نزلت (فمنهم شقى و سعيد) سألت رسول اللّه ، فقلت: يا نبى اللّه فعلى مَ نعمل، على شىء قد فرغ منه، أو على شىء لم يفرغ منه؟ قال: بل على شىء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كلّ ميسر لما خلق له.(۱) وهذا الحديث يعرب عن أنّه قد تمّ القضاء على الناس فى الأزل وجعلهم صنفين وكلّ ميسر لما خلق له فى الأزل لا لما لم يخلق له، فأهل السعادة ميسّرون للاعمال الصالحة فقط وأهل الشقاء ميسّرون للأعمال الطالحة فقط، وأى جبر أوضح و أبين ممّا جاء فى هذا الحديث. _____

۱ - صحيح مسلم: ۸ / ۴۵، كتاب القدر . (۲۶)

۳- مضاعفات القول بالجبر

۳- مضاعفات القول بالجبر إنّ للقول بالجبر وإنّ الإنسان مسيّر لا مخيّر، مضاعفات كثيرة، نشير إلى قسم منها ونحيل الباقى إلى مجال آخر: ۱. انتفاء الغرض من بعثة الأنبياء إنّ الغرض من بعثة الأنبياء هو دعوة الناس وإرشادهم إلى معالم التوحيد ونهيهم عن الشرك فى مجال العقيدة، وإلى محاسن الأخلاق وزجرهم عن مساويها فى مجال العمل، يقول سبحانه: (وَلَقَدْ بَعَثْنا فى كُلِّ أُمّةٍ رَسُولاً أَن اعْبُدوا اللّه وَاجْتَنِبُوا (۲۷) الطّاغُوت)(۱)، وقال سبحانه: (كانَ النّاسُ أُمّةً واحدةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيّينَ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرين)(۲) إلى غير ذلك من الآيات التى تعكس الهدف المنشود من وراء بعث الأنبياء، ولا يتحقّق هذا الغرض إلّا فى ظل كون الإنسان مخيّراً لا مسيَّراً، فلو كان مسيّراً فكلّ إنسان كتب عليه النار، فهو يدخلها ، إذن فما هو فائدة بعث الأنبياء، فإنّ دعوة الأنبياء وعدمها بالنسبة إليه سيّان؟! وهذا من الوضوح بمكان لا يحتاج إلى التطويل. ۲. انتفاء فائدة المناهج التربوية التربية عبارة عن توفير أرضية مناسبة لخروج ما هو بالقوة إلى منصّة الظهور والفعلية، وهذا كالمزارع والفلاح القائمين بتربية البذور والنباتات فيوفّران ما يحتاجان إليه فى إخراج الاستعداد المكنون فيهما إلى حيز الظهور والكمال، _____

۱ - النحل:۳۶.

۲ - البقرة:۲۱۳. (۲۸)

فليس للمربّى دور الخلق والإيجاد، بل تهيئة الظروف المناسبة لأن يُظهر الشىءُ كمالَه المستور لكى ينقلب البذر زرعاً والنبات شجراً. وعلى ضوء ذلك فالمناهج التربوية فى الإنسان، شعارها رفع المستوى الفكرى له وسوقه نحو الفضائل ومنعه من السقوط فى هاوية الرذائل، ومن المعلوم أنّ تحقّق هذه الغاية رهن وجود الحرية فى الإنسان لكى يقع فى إطار التربية، فيسير حسب الضوء الذى يريه المربى، فلو كان مسيّراً لا ـ مخيّراً فإعمال الأساليب التربوية يُصبح أمراً لغواً غير مؤثر. ۳. تكذيب الكتاب العزيز إنّ من سبر الكتاب العزيز وتجرد عن عامّية الرواسب يجد انّ القرآن يصوّر الإنسان فاعلاً مختاراً يخاطبه فينصحه تارة، ويأمره أُخرى، ويزجره ثالثاً، ويعده رابعاً ويوعده خامساً، إلى غير ذلك من علائم الاختيار وآثاره، ونذكر منها (۲۹)

مايلى: ۱. قوله سبحانه: (إنّا هديناهُ السَّبيل إمّا شاكراً وَإمّا كفوراً). ۲. قوله سبحانه: (وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شاءَ فليَكْفُر إنّا أَعْتَدْنا للظّالِمينَ ناراً أَحاطَ بِهِم سُرادِقُها وَإن يستغيثُوا يُغاثُوا بِماء كالمُهْل يَشْوِى الوُجُوهَ بئسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرتَفقاً).(۱) وللّه در الشهيد السعيد زين الدين العاملى حينما أنشد:

لقد جاء فى القرآن آيةُ حكمة * تدمِّر آياتِ الضلال ومن يُجبر وتخبر انّ الاختيار بأيدينا * فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر ۳. قال سبحانه: (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ _____

۱ – الكهف:۲۹. (۳۰) فَعَليها وَما ربّكَ بِظَلاّم لِلْعَبيد).(۱) ۴ . قال سبحانه: (كُلَّ امرى بِما كَسَبَ رَهين).(۲) ۵. قال سبحانه: (لِكَلِّ امرى مِنْهُمْ مَا اكتَسَبَ مِنَ الإِثْم).(۳) ۶. قال تعالى: (وَأَنْ لَيْسَ للإِنْسانِ إِلاّ ما سعى * وأَنَّ سَعْيَهُ سَوفَ يُرى * ثُمّ يُجزاهُ الجزاءَ الأوفى).(۴) إلى غير ذلك من الآيات الصريحة فى أنّ الإنسان مخيّر فيما يختار ويترك وليس فى حياته عاملُ ضغط باسم القدر والقضاء أو غيره، يسلب عنه الاختيار، وأمّا الآيات التى ربّما يستشم منها الجبر، ككون الهداية والضلال بيد اللّه سبحانه فسيوافيك تفسيرها . ۴. الجبرى فى ساحة الحياة، اختيارىّ كلّ من رفع راية الجبر واتّسم به فى الحياة، وبنى عليه _____

۱ – فصلت:۴۶.

۲ – الطور:۲۱.

۳ – النور:۱۱.

۴ – النجم:۳۹ـ۴۱. (۳۱)

منهجاً فلسفياً، فهو يغالط نفسه، فترى أنّه إذا ظُلم وغصب حقّه، ينـدِّد بالظالم ويرفع شكواه إلى المحاكم حتّى يأخذ الحاكم حقّه من الغاصب والظالم، فلو لم يكن لخصمه خيرة واختيار فما معنى التنديد والتعرض له؟ وهذا يدلّ على أنّه يصوّر الخصم المخالف إنساناً مختاراً غصب ما يملكه عن اختيار وله أن يقوم بردّه إلى صاحبه. وبالجملة كلّ من رفع عقيرته بالجبر فهو حين الجدال والسجال وإن كان جبريّاً ولكنّه فى حياته الاجتماعية اختيارى على ضد الجبر ولا يقبل أىّ عذر لخصمه!! ۵. الجبر واجهة لنيل المزيد من الحرية إنّ من دوافع القول بالجبر هو اشباع الميول والغرائز الحيوانية فى الحياة، فالجبرى يطلب المزيد من الحرية من وراء ادّعائه الجبر، ويتستر تحت واجهة الجبر ليخلِّص نفسه من عهدة التكليف والمسؤولية، ففى الحقيقة هو لا يؤمن بالجبر (۳۲)

كمنهج للحياة، بل يعتقد بالحرية فيها ليعيش فيها وفقاً لما تمليه عليه غرائزه الجامحة. إلى هنا تم الحديث عن بعض مضاعفات الجبر.

۴– شبهات وحلول

۴– شبهات وحلول ثمّ إنّ للقائلين بالجبر شبهات مختلفة ربما يغتر بها السذج من الناس، فها نحن نستعرض تلك الشبهات ونضع أمام القارئ حلولاً لها على نحو لا يبقى لمشكك شك ولا لمريب ريب، فنقول: الشبهة الأُولى ۱. مثلث الشخصية إنّ فعل الإنسان تعبير عن شخصيّته المكوّنة بأُصول ثلاثة يعبّر عنها بمثلث الشخصية وإن كانت الأضلاع فى بنائها ومقدار تأثيرها غير متساوية، ولكن كلّ ضلع يؤثر فيها (۳۴)

تأثيراً قطعيّاً، وأمّا أضلاعها: أ. ناموس الوراثة. ب. الثقافة. ج. البيئة. أمّا الأوّل: فهو أمر اعترف به العلم والتجربة ويلمسه كل إنسان واع، فالولد كما يرث الصفات الجسمانية للوالدين كذلك يرث صفاتهما الخُلقية وينشأ عليها، يقول الشاعر: ينشا الصغير على ما كان والده * انّ الأُصول عليها ينبت الشجر فاللبنة الأُولى فى بناء الشخصية الصالحة أم الطالحة هى ما يرث الولد من الوالدين من الفضائل والرذائل، وقد كشف العلم أنّ الجينات الموجودة فى النطفة الإنسانية سبب طبيعى وعامل لانتقال هذه الصفات من الوالدين إلى الطفل. وأمّا الثانى فيأتى دوره بعد دور الوراثة حيث إنّ المعلّم يمثِّل المدرسة التربوية الثانية بعد مدرسة الأبوين، ولهذا يكون (۳۵)

دور التعليم فى مصير الطفل دوراً حسّاساً فى قلبه. وأمّا الثالث فيأتى دوره إذا أتمّ دراسته وبدأ ممارسة العمل، فعندئذ يتأثر فى سلوكه وخُلقه بالبيئة التى يعيش فيها، فإذا كانت العوامل الثلاثة متجانسة فى الغاية والأثر، يقع الكلّ فى طريق تكوين الشخصية الواحدة بلا صراع بينها ولا نزاع، وأمّا إذا كان بينها نزاع وصراع فى الغاية والدعوة، فتكون النتيجة من حيث السلوك، تابعة لأقوى العوامل وأرسخها فى الروح وهو يختلف حسب اختلاف تأثير الأوفر سهماً من هذه، ولأجل ذلك يوجد من يختار سلوك الآباء كما يوجد من يتركه و يقتفى أثر الثقافة أو البيئة. وعلى كلّ تقدير فالإنسان مختار صورة، لكنّه مسيّر سيرة يخط مصيره هذه العوامل أو أقواها تأثيراً. يلاحظ عليه: أوّلاً: بأنّ ما ذكر من تأثير العوامل الثلاثة فى بناء الشخصية أمر لا غبار عليه، إنّما الكلام فى كونها علّة تامّة أو معدّات

تُوجِد أرضيةً لنمو مقتضاها، ولا تُوجِدُ حتمية، غير قابلة للتغيير: (۳۶) أمّا العامل الأوّل فلا شكّ فى تأثيره، وقد قال سبحانه: (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلا نَكِداً).(۱) وفى الآيات والروايات تصريحات وإشارات إلى ذلك، لكن أثرها بين غير قابل للتغيير، كالبُله والحمق والبلادة، وبين قابل له فى ظلّ عوامل تربوية، ولأجل ذلك ربما يكون الولد المتولّد من أبوين بارّين، خائناً وجانياً، كما ربما يكون الولد المتولّد من أبوين طاغيين، إنساناً صالحاً مطيعاً، والأوّل كولد نوح، والثانى كعمر بن عبد العزيز الأموى. ومثله العامل الثانى، فليس عاملاً حتمىّ الأثر وقطعىّ النتيجة، فربّما يسعى الوالدان، لتغيير ما أوجده التعلّم من الآثار الطيّبة أو الخبيثة. ولا يقلُّ عنه العامل الثالث، فقد أثّرت البيئة الفاسدة على امرأة نوح وامرأة لوط، فأفسدتهما(۲) وفى الوقت نفسه

---

۱ – الأعراف:۵۸.

۲ – لاحظ سورة التحريم، الآية ۱۰. (۳۷)

بقيت فى بيت نوح عدّة على صلاحهم وفلاحهم. فهذه العوامل بأجمعها معدّات، لا علّة تامّة فى بناء الشخصية الحتمية غير القابلة للتغيير. ثانياً: أنّ العوامل المكوِّنة للشخصية الإنسانية لا تنحصر فى العوامل الثلاثة المذكورة التى اختارها المادى، لأنّها تناسب ما يبتغيه، كيف وانّ هناك أبعاداً روحية للإنسان وأحاسيس خاصة، توحى إليه خير الحياة وتدفعه إليها، بحماس، وإن لم يكن علّة تامة أيضاً فى التخطيط، وهى عبارة عن الإدراكات النابعة من داخل الإنسان وفطرته من دون أن يتدخل فى الإيحاء عامل خارجى، كإحساسه بالجوع والعطش، ورغبته فى الزواج فى سنين معيّنة، والاشتياق إلى المال والمنصب فى فترات من حياته، وميله إلى ما هو حسن بالذات وهروبه عمّا هو قبيح كذلك، كالإحسان والأمانة والوفاء بالميثاق، وفى مقابله الظلم، والخيانة، ونقض العهد.تلك المعارف ـ و إن شئت سمّيتها بالأحاسيس ـ تنبع من ذات الإنسان وأعماق وجوده. (۳۸) الشبهة الثانية أفعال الإنسان فى إطار القضاء والقدر القدر بمعنى انّه سبحانه يقدّر وجود الشىء ويحدّده كمّاً وكيفاً و زماناً ومكاناً إلى غير ذلك من الخصوصيات الحافّة بالشىء قبل تحقّقه وايجاده. هذا هو التقدير، وأمّا القضاء فهو حكمه القطعى بتحقّق ذلك الشىء المقدّر فى ظرفه. هذا حسَب أُصولنا وأمّا على أُصول غيرنا، «فالقضاء» هو إرادته سبحانه الأزلية، «والقدر» هو ايجاد الشىء على قدر مخصوص كما سيوافيك.(۱)

---

۱ – لاحظ ص ۶۴. (۳۹) فقد أخذوا من القدر، المعنى العينى وغفلو عن معناه العلمى، فالتقدير منه علمى قبل الايجاد، ومنه عينى معه. والتقدير والقضاء بهذا المعنى يشمل كلّ ما فى الكون من الموجودات الممكنة من السماء والأرض وما فيها حتّى الإنسان وجوده وفعله. وإن أردنا أن نشبه المعقول بالمحسوس فنقول: التقدير والقضاء أشبه بعمل الخياط عندما يأخذ قياسات الثوب، ثمّ يشرع بخياطته ولولا ذلك لتعسّر عليه الخياطة. ما هو محط النزاع فى المقام؟ إنّ محطّ النزاع فى القضاء والقدر، هو أفعال الإنسان، التى يترتّب عليها الثواب والعقاب، ويحمد أو يذمّ، فهل وقوعها فى إطار القضاء والقدر يسلب عنه الاختيار ويسود عليها، الجبر والحتم، أو لا؟! وأمّا ما وراء ذلك من الأُمور الكونية سواء أكان له (۴۰)

صلة بحياة الإنسان وأفعاله أم لا، فخارج عن محط النزاع، فالقول بسيادة الجبر عليه، نظر إلى الخصوصيات الكامنة فى وجوده، تعبير واضح عن واقع وجوده مثلاً. ۱. انّ حركة الشمس والقمر وما بينهما وفوقهما من السيارات والكواكب والمجرّات ، حركات جبرية لأنّه سبحانه قدّر وجودها، وحركاتها بهذه الخصوصية وقضى عليها به ، يقول سبحانه: (وَسَخَّر لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والْقَمَر والنُّجُومُ مُسخّراتٌ بأمْرِهِ إنَّ فى ذلكَ لآيات لِقَوْم يَعْقِلُون)(۱) فالجميع فواعل، تسخرية غير شاعرة بأفعالها. ۲. ما يقوم به النحل والنمل من الأفاعيل العجيبة، المحيّرة للعقول حركات تسخرية، يقوم به عن شعور، ولكن لا بحرية واختيار فقد كتبت عليهما بقلم القضاء ان يتخذ من الجبال بيوتاً و الشجر وممّا يعرشون يقول سبحانه حاكياً عن القضاء المحتوم على النحل:(وأوحَى ربّكَ إلى النَّحلِ أنِ

۱ – النحل:۱۲. (۴۱) اتَّخذى مِنَ الجِبال بُيوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمّا يَعرِشُونَ * ثمّ كُلِى مِنْ كِلّ الثَّمَراتِ فَاسلُكى سُبُلَ ربّكِ ذُلُلًا يَخْرجُ مِنْ بُطونها شَرابٌ مُختلِفٌ أَلوانُهُ فيهِ شِفاءٌ لِلنّاسِ إنّ فى ذلكَ لآيةً لِقَوم يَتفكّرونَ).(۱) فالنحل ذاته ووجوده وعمله وصنعه واقع فى إطار التقدير و القضاء والنظام السائد على ذلك، هو سيادة الجبر عليه وأشباهه. ۳. انّ خلقة الإنسان ونشوءه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة إلى العظام إلى غير ذلك ممّا يجرى عليه إلى أن يولد وينمو و يشبّ و يشيب، ويموت كلّها واقع فى إطار التقدير والقضاء، لا خيار للإنسان فيه، شاء أم لم يشأ، فالقول بسيادة الجبر عليه فى هذه المرحلة تعبير واقعى، لا ينافى حكم العقل والشرع. ۴. انّ ما يواجهه الإنسان فى حياته، ممّا يبتلى به غير مريد به كالطوفان الجارف الذى يكتسح مزرعته، والسيل ــــــــــــــــــ

۱ – النحل: ۶۸ ـ ۶۹ . (۴۲)

العارم الذى يهدم منزله و بيته، والزلزال الشديد، الذى يزعزع بنيانه وبالتالى يخسر ويتضرر، كلّها بقدر من اللّه سبحانه لا يُلام بها الإنسان ولا يذمّ وهو أيضاً كسوابقه خارج عن محطّ البحث. فالذى تدور عليه رحى النزاع والدراسة، ما يصدر عن الإنسان من الأفعال التى فى وسعه تركها أو فعلها، فهل وقوعها فى إطار التقدير يجرّنا إلى القول بالجبر، أو لاصلة بين القول بالقضاء والقدر، واستنتاج الجبر منه؟ وهذا موضوع بحثنا ودراستنا. إنّ كثيراً من الناس زعموا انّ القول بالقضاء والقدر يضادّ كون الإنسان مخيراً، وقد كان ذلك الزعم سائداً فى عصر الإمام أمير المؤمنين حيث أقبل شيخ إلى الإمام على ـ عليه السَّلام ـ عند منصرفه من صفين فقال: أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام، أبقضاء اللّه وقدره؟ فقال: «أجل يا شيخُ ما علَوتُم من تلْعة ولا هبطتم من واد إلّا بقضاء من اللّه وقدره» فقال الشيخ: عند اللّه احتسب (۴۳)

عنائى يا أمير المؤمنين.(۱) فقال أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ :«يا شيخ، فواللّه لقد عظّم اللّه لكم الأجر فى مسيركم، وأنتم سائرون، وفى مقامكم إذ أنتم مقيمون، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون، لم تكونوا فى شىء من حالاتكم مُكْرَهين، ولا إليه مضطرّين». فقال الشيخ : فكيف لم نكن فى شىء من حالاتنا مكرهين، ولا إليه مضطرين وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا و منصرفنا؟! فقال أمير المؤمنين ـ عليه السَّلام ـ :«أتظن أنّه كان قضاءً حتماً، وقدراً لازماً، إنّه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهى، والزجر من اللّه تعالى، وسقط معنى الوعد والوعيد، ولم تكن لائمة للمذنب، ولا مَحْمَدَة للمحسن، ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب، وتلك مقالة إخوان عبدة الأوثان ــــــــــــــــــ

۱ – ومعنى هذه الجملة: انّى لم أقم بعمل اختيارى، ولأجل ذلك احتسب عنائى عند اللّه . (۴۴)

وخصماء الرحمن، وحزب الشيطان وقدرية هذه الأُمّة ومجوسها، وانّ اللّه كلّف تخييراً ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعص مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يملِّك مفوِّضاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النبيّين مبشّرين ومنذرين عبثاً، ذلك ظن الّذين كفروا فويل للّذين كفروا من النار».(۱) والحديث جمع بين القول بين القدر والقضاء وكون الإنسان مخيّراً لا مسيّراً. وانّ الإيمان بالقدر، لا يجعل الإنسان مكتوف اليدين بل هو مختار غير مكرَه. ولقد بقيت الفكرة بعد رحيل الإمام على ـ عليه السَّلام ـ وتسرّبت إلى كثير من الأوساط فجعلوا القضاء والقدر من أدلّة الجبر. ولمّا كان فى القول بالقضاء والقدر وصمة الجبر، أنكرت المعتزلة وقوع الأفعال الاختيارية الصادرة عن العباد متعلّقة بالقضاء والقدر، خلافاً للأشاعرة فقد جعلوا الأفعال متعلّقاً للقضاء والقدر، فقالوا: إنّ قضاء اللّه هو إرادته الأزلية المتعلّقة ــــــــــــــــــ

۱ – الصدوق: التوحيد: ۳۸۰، الحديث۲۸. (۴۵)

بالأشياء على ما هى عليه فيما لا يزال، وقدره إيجادها إيّاها على قدر مخصوص وتقدير معيّن فى ذواتها وأحوالها .(۱) أقول: لا شكّ انّ كلّ ما فى الكون من كبير وصغير وجليل ودقيق من الجواهر والأعراض كلّها واقعة فى إطار القدر والقضاء، غير أنّ استنتاج الجبر من القدر والقضاء، استنتاج خاطئ، بل القول بهما يؤكد الاختيار على خلاف ما يستنتجه القائلون بالجبر. وإليك توضيح المقام فانّه يطلق القضاء والقدر على معنيين: ــــــــــــــــــ

۱ – شرح المواقف:۱۸۰/۸ـ۱۸۱. (۴۶)

المعنى الأوّل للقضاء والقدر ۱ القضاء والقدر: السنن الكونية يُطلق القضاء والقدر ويراد بهما السنن الكونية الواردة فى الكتاب والسنّة السائدة على الكون عامّة، والإنسان خاصة وبيد الإنسان مفتاح التظلّل تحت أى سنّة من السنن، ونذكر من هذه السنن، الشىء القليل من الكثير: ۱. قال سبحانه حاكياً عن شيخ الأنبياء نوح ـ عليه السّلام ـ : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إِنَّهُ كانَ غَفّاراً * يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدراراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوال وَبَنينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنّات وَيَجْعَلْ (۴۷) لَكُمْ أَنْهاراً).(۱) فترى أنّ نوحاً ـ عليه السّلام ـ يجعل الاستغفار سبباً مؤثراً فى نزول المطر وكثرة الأموال وجريان الأنهار، ووفرة الأولاد. وإنكار تأثير الاستغفار فى هذه الكائنات أشبه بكلمات الملاحدة. وموقف الاستغفار هنا موقف العلّة التامّة أو المقتضى بالنسبة إليها، والآية تهدف إلى أنّ الرجوع إلى اللّه وإقامة دينه وأحكامه، يسوق المجتمع إلى النظر والعدل والقسط، إذ فى ظلّه تنصبّ القوى على بناء المجتمع على أساس صحيح، فتُصرف القوى فى العمران والزراعة وسائر مجالات المصالح الاقتصادية العامّة ;كما أنّ العمل على خلاف هذه السنّة، وهو رجوع المجتمع عن اللّه وعن الطهارة فى القلب والعمل، ينتج خلاف ذلك. وللمجتمع الخيار فى التمسّك بأهداب أيّة من السُّنتين، فالكلّ قضاء اللّه وتقديره. فمن تمسّك بالأُولى فقد _____

۱ – نوح:۱۰ـ۱۲. (۴۸)

تمسّك بقضاء اللّه، كما أنّ مَنْ تمسّك بالثانية فقد تمسّك به أيضاً. ۲. قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكات مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ).(۱) ۳. قال سبحانه: (إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوم حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ).(۲) ۴. قال سبحانه: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْم حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِم).(۳) والتقرير فى مورد هذه الآيات الثلاث مثله فى الآية السابقة عليها وللإنسان الخيار فى الأخذ بأيّة من السنّتين. ۵. وقال سبحانه: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابى لَشديد).(۴) ترى أنّ الآية تتكفّل ببيان كلا طرفى السنّة الإلهية إيجاباً وسلباً، وتُبيّن النتيجة المترتّبة على كلّ واحد منهما. والكلّ _____

۱ – الأعراف:۹۶.

۲ – الرعد:۱۱.

۳ – الأنفال:۵۳.

۴ – إبراهيم:۷. (۴۹)

قضاؤه وتقديره والخيار فى سلوكهما للمجتمع. ۶. وقال سبحانه: (وَمَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب).(۱) ۷. وقال سبحانه: (يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثّابِتِ فِى الحَياةِ الدُّنيا وَفِى الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظّالِمين وَيَفْعَلُ اللّهُ ما يَشاء).(۲) فالمجتمع المؤمن باللّه وكتابه وسنّة رسوله إيماناً راسخاً يثبته اللّه سبحانه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، كما أنّ الظالم والعادل عن اللّه سبحانه يخذله سبحانه ولا يوفّقه إلى شىء من مراتب معرفته وهدايته. ولأجل ذلك يُرتّب على تلك الآية قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَومَهُمْ دارَ الْبَوارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَونَها وَبِئْسَ الْقَرار).(۳) ۸. وقال سبحانه: (وَلَقَدْ كَتَبْنا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ

---

۱ – الطلاق:۲ـ۳.

۲ – إبراهيم:۲۷.

۳ – إبراهيم:۲۸ـ ۲۹. (۵۰) الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصّالِحُون).(۱) فالصالحون لأجل تحلّيهم بالصلاح فى العقيدة والعمل، يغلبون الظالمين وتكون السيادة لهم، والذلّة والخذلان لمخالفيهم. ۹. وقال سبحانه: (وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنى

لاَ يُشْرِكُونَ بى شَيئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُون).(۲) فالاستخلاف فى الأرض نتيجة الإيمان باللّه والعمل الصالح وإقامة دينه على وجه التمام، ويترتّب عليه ـ وراء الاستخلاف ـ ما ذكره فى الآية من التمكين وتبديل الخوف بالأمن. ۱۰. وقال سبحانه: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا _____

۱ – الأنبياء:۱۰۵.

۲ – النور:۵۵. (۵۱) كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها).(۱) والآيات الواردة حول الأمر بالسير فى الأرض والاعتبار بما جرى على الأُمم السالفة لأجل عتوّهم وتكذيبهم رسل اللّه سبحانه، كثيرة فى القرآن الكريم، تبيّن سنّته السائدة على الأُمم جمعاء. ۱۱. وقال سبحانه: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبين).(۲) ۱۲. وقال سبحانه: (يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الفَضْلِ العَظيم).(۳) ۱۳. وقال سبحانه: (مَا يُجادِلُ فى آياتِ اللّهِ إِلاّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى البَلاد * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ _____

۱ – محمد:۱۰.

۲ – الأنفال:۲۹.

۳ – آل عمران:۱۳۷. (۵۲) نُوح وَالأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادلُوا بالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ * وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النّار).(۱) والآية من أثبت الآيات المبيّنة لسنته تعالى فى الذين كفروا، فلا يصلح للمؤمن أن يغرّه تقلّبهم فى البلاد، وعليه أن ينظر فى عاقبة أمرهم كقوم نوح والأحزاب من بعدهم، حتّى يقف على أنّ للباطل جولة وللحقّ دولة، وانّ مردّ الكافرين إلى الهلاك والدمار كما أنّ مردّ المؤمنين إلى الجنة، والإنسان مخيّر بين التظلّل تحت أى واحد منهما. ۱۴. وقال سبحانه: (وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهدَى مِنْ إِحدَى الأُمَم فَلَمّا جاءَهُمْ نَذيرٌ ما زادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً * اسْتِكْباراً فى الأَرْض وَمَكْرَ السَّيِّء ولا يَحيقُ المَكْرُ السَّيِّئ إِلاّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الأَوّلينَ

---

۱ – غافر:۴ـ۶. (۵۳) فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَحْويلاً).(۱) وما ذكرنا من الآيات نبذة من السنن الإلهيّة السائدة على الفرد والمجتمع. وفى وسع الباحث أن يتدبّر فى آيات الكتاب العزيز حتّى يقف على سننه تعالى وقوانينه، ثمّ يرجع إلى تاريخ الأُمم وأحوالها فيُصدِّق قوله سبحانه: (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللّهِ تَحْويلاً). فالجميع من قضائه وقدره، وللبشر أن يتظلل بأى واحد منهما شاء...وليس فى القول بالقضاء والقدر بهذا المعنى، رائحة الجبر، بل فيها تأكيد للاختيار. هذا هو المعنى الأوّل لهما وإليك المعنى الثانى. _____

۱ – فاطر:۴۲ـ ۴۳. (۵۴) المعنى الثانى للقضاء والقدر ۲ علمه الأزلى بتحقّق الشىء مع خصوصياته المراد من القدر هو علمه سبحانه بالأزل بحد الشىء وخصوصيات وجوده وحدوده، كما أنّ المراد من القضاء هو علمه بتحقّقه ووجوده، وهذا ما يسمّى بالتقدير والقضاء العلميّين. وربما يتوهّم انّ دخول فعل الإنسان فى اطار القدر والقضاء يوجب سلب الاختيار عن الإنسان، لأنّه سبحانه يعلم فى الأزل فعل الإنسان حسب ما له من الخصوصيات، ويعلم تحقّقه فى المستقبل، فإذا كان فعل الإنسان معلوماً للّه (۵۵)

سبحانه تقديراً وقضاءً فلا يبقى له الاختيار. على هامش الشبهة إنّ علمه الأزلى لم يتعلّق بصدور كلّ فعل عن فاعله على وجه الإطلاق، بل تعلّق علمه بصدور كلّ فعل عن فاعله حسب الخصوصيات الموجودة فيه، وعلى ضوء ذلك تعلّق علمه الأزلى بصدور الحرارة من النار على وجه الجبر بلا شعور، كما تعلّق علمه الأزلى بصدور الرعشة من المرتعش، عالماً بلا اختيار، ولكن تعلّق علمه سبحانه بصدور فعل الإنسان الاختيارى منه بقيد الاختيار والحرية، فتعلّق علمه بوجود الإنسان وكونه فاعلاً مختاراً، وصدور فعله عنه اختياراً، يؤكّد الاختيار ويدفع الجبر عن ساحة الإنسان. وإن شئت قلت: إنّ العلّة إذا كانت عالمة شاعرة، ومريدة ومختارة كالإنسان، فقد تعلّق علمه بصدور أفعالها منها بتلك الخصوصيات، وانصباغ فعلها بصبغة الاختيار والحرية. فلو صدر فعل الإنسان منه بهذه الكيفية لكان (۵۶)

علمه مطابقاً للواقع غير متخلّف عنه ;وأمّا لو صدر فعله عنه فى هذا المجال عن جبر واضطرار بلا علم وشعور، أو بلا اختيار وإرادة، فعند ذلك يتخلّف علمه عن الواقع. ونقول توضيحاً لذلك: إنّ الأعمال الصادرة من الإنسان على قسمين: قسم يصدر منه بلا شعور ولا إرادة، كأعمال الجهاز الدموىّ، والجهاز المعوىّ، وجهاز القلب، والأحشاء، التى تتسم فى أفعال الإنسان بسمة الأعمال الاضطرارية، غير الاختيارية ;وقسم آخر يصدر منه عن إرادة واختيار، ويتّسم بسمة الأعمال الاختيارية غير الاضطرارية، كدراسته، وكتابته، وتجارته، وزراعته. ولمّا كان علم اللّه تعالى تعبيراً عن الواقع على نحو لا يتخلّف عنه قيدَ شعرة، فيتعلّق علم اللّه بأفعال الإنسان على ما هى عليه من الخصائص والألوان. فتكون النتيجة أنّه سبحانه يعلم من الأزل صدور فعل معين فى لحظة معيّنة من إنسان معيّن إمّا بالاضطرار، أو الإكراه، أو بالاختيار والحرية، وتعلّق مثل هذا العلم لا يُنتج الجبر، بل يلازم الاختيار. ولو (۵۷)

صدر كلّ قسم على خلاف ما اتّسم به لكان ذلك تخلّفاً عن الواقع. ولمّا كان الموضوع ممّا ضلّ فيه كثير من الأفهام، وزلّت أقدام غير واحد من الباحثين، ندرس الموضوع على وجه التفصيل، ونرفع النقاب عن وجه الواقع، بذكر بعض الأمثلة: ۱. إذا كان تعلّق العلم بالفعل سالباً للاختيار وموجباً للجبر يلزم أن يكون سبحانه ـ نعوذ باللّه ـ فاعلاً بالجبر، لعلمه بفعله قبل إيجاده، واللّه سبحانه هو الفاعل المختار لا يخضع لشىء. ۲. انّ المعلم الذى يمارس التدريس، بإمكانه التنبؤ بنتائج الامتحان الذى سيقام لتلاميذه آخر الفصل الدراسى، حيث يستطيع أن يميز بين الناجح منهم والراسب وتكون نتيجة الامتحان وفق ما تنبّأ به، أفيصح للراسب فى الامتحان أن يلقى وزر ذلك على عهدة معلمه؟! فإنّ علم المعلّم وصّاف كشّاف يحكى عن الواقع ولا (۵۸)

يؤثّر عليه وإنّما المؤثر على الواقع مؤهّلات التلميذ وسعيه وكدحه. ۳. انّ علمه سبحانه لا يتعلّق بالمسبّب بما هو مسبّب وإنّما يتعلّق بضم المسبّب إلى أسبابه والنتائج إلى مقدّماتها، فإذا كان السبب والمقدمة أمراً اختيارياً، فأولى أن يكون المسبب كذلك. كلمة للشيخ الغزالى حولَ استنتاج الجبر من العلم الإلهى وللشيخ محمد الغزالى كلمة فى نقد انّ العلم الإلهى يسلب الاختيار، يقول: إنّ عامّة المسلمين يطوون أنفسهم على ما يُشبه عقيدة الجبر ولكنّهم حياءً من اللّه يسترون الجبر باختيار خافت موهوم، وقد أسهمت بعض المرويات فى تكوين هذه الشبهة وتمكينها، وكانت بالتالى سبباً فى إفساد الفكر الإسلامى وانهيار الحضارة والمجتمع . إنّ العلم الإلهى المحيط بكلّ شىء وصّاف، كشاف، يصف ما كان، ويكشف ما يكون، والكتاب الدالّ عليه (۵۹)

يسجّل للواقع وحسب! لا ـ يجعل السماء أرضاً ولا الجماد حيواناً، إنّه صورة تطابق الأصل بلا زيادة ولا نقص ولا أثر لها فى سلب أو إيجاب. إنّ هذه الأوهام(التقدير سالب للاختيار) تكذيب للقرآن والسنّة، فنحن بجهدنا وكدحنا ننجو أو نهلك، والقول بأنّ كتاباً سبق علينا بذلك وأنّه لاحيلة لنا بازاء ما كتب أزلاً هذا كلّه تضليل وإفك، لقوله تعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها).(۱) (وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر).(۲) والواقع انّ عقيدة الجبر تطويح بالوحى كلّه وتزييف للنشاط الإنسانى من بدء الخلق إلى قيام الساعة، بل هى تكذيب للّه والمرسلين قاطبة، ومن ثمّ فإنّنا نتناول بحذر شديد ما جاء فى حديث مسلم وغيره: انّ أحدكم ليعمل بعمل أهل ــــــــــــــــــ

۱ – الأنعام:۱۰۴.

۲ – الكهف:۲۹. (۶۰)

الجنة حتّى ما يكون بينه و بينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار...».

إلى أن قال: وكلّ ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمّد لدين اللّه ودنيا الناس، وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين يهوّنون من الإرادة البشرية ومن أثرها فى حاضر المرء ومستقبله وكأنّهم يقولون للناس أنتم محكومون بعلم سابق لا فكاك منه ومسوقون إلى مصير لا دخل لكم فيه، فاجهدوا جهدكم فلن تخرجوا من الخط المرسوم لكم مهما بذلتم. إنّ هذا الكلام الردىء ليس نضح قراءة واعية لكتاب ربنا، ولا اقتداء دقيقاً بسنّة نبينا انّه تخليط قد جنينا منه المرّ. وكل أثر مروى يشغب على حرية الإرادة البشرية فى صنع المستقبل الأُخروى يجب أن لا نلتفت إليه، فحقائق الدين الثابتة بالعقل والنقل لا يهدّها حديث واهى السند أو (۶۱)

معلول المتن، لكنّنا مهما نوّهنا بالإرادة الإنسانية فلا تنسى انّنا داخل سفينة يتقاذفها بحر الحياة بين مد وجزر وصعود وهبوط، والسفينة تحكمها الأمواج، ولا تحكم الأمواجَ، ويعنى هذا انّ نُلْزم موقفاً محدداً بازاء الأوضاع المتغيرة التى تمرّ بنا هذا الموقف من صنعنا وبه نحاسب.(۱)

۱ – السنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ الغزالى:۱۴۴ـ ۱۵۷. (۶۲) الشبهة الثالثة الهداية والضلالة بيد اللّه دلّت الآيات القرآنية على أنّ الهداية والضلالة بيده سبحانه، فهو يضلّ من يشاء و يهدى من يشاء، فإذا كان أمر الهداية مرتبطاً بمشيئته، فلا يكون للعبد دور لا ـ فى الهداية ولا فى الضلالة، فالضال يعصى بلا اختيار، والمهتدى يطيع كذلك وهذا بالجبر، أشبه منه بالاختيار. قال سبحانه: (وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُول إِلاّ ـ بِلِسانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدى مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ العَزيزُ (۶۳) الحَكيم).(۱) فإذا كانت الهداية والضلالة بيد اللّه سبحانه فما معنى الاختيار؟ على هامش الشبهة هذه هى الشبهة أو الاستدلال على القول بالجبر ولكن الإجابة عليها ليست أمراً مشكلاً بشرط أن نقف على أنّ الهداية على أقسام، ونميز الهداية العامّة التى عليها تبتنى مسألة الجبر والاختيار والهداية الخاصة التى مفتاحها بيد الإنسان، وإليك التفصيل: ۱. الهداية التكوينية العامّة والمراد منها خلق كلّ شىء وتجهيزه بما يهديه إلى الغاية التى خلق لها: قال سبحانه حاكياً كلام النبى موسى ـ عليه السّلام ـ :(قالَ رَبُّنَا الّذى أَعطى كلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ

---

۱ – إبراهيم:۴. (۶۴) هَدى)(۱)، وجهز كلّ موجود بجهاز يوصله إلى الكمال، فالنبات مجهّز بأدقّ الأجهزة التى توصله فى ظروف خاصة إلى تفتح طاقاته، فالحبة المستورة تحت الأرض ترعاها أجهزة داخلية وعوامل خارجية كالماء والنور إلى أن تصير شجرة مثمرة، ومثله الحيوان والإنسان فهذه الهداية عامة لجميع الأشياء ليس فيها تبعيض وتمييز. قال سبحانه : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى * الَّذِى خَلَقَ فَسَوّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدى).(۲) وقال سبحانه: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَينَين * وَلِساناً وشَفَتين * وهَديناهُ النَّجْدَيْن).(۳) وقال سبحانه: (وَنَفْس وَمَا سَوّاها * فَأَلْهَمها فُجُورَهَا وَتَقْواها).(۴) إلى غير ذلك من الآيات الواردة حول الهداية التكوينية التى تنبع من ذات الشىء بما أودع اللّه فيها من الأجهزة

۱ – طه:۵۰.

۲ – الأعلى:۱ـ۳.

۳ – البلد:۸ـ۱۰.

۴ – الشمس:۷ـ۸. (۶۵)

والالهامات التى توصله إلى الغاية المنشودة من غير فرق بين المؤمن و الكافر، فقوله سبحانه عام يعمّ مجموع البشر مؤمنه وكافره(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرَت اللّه الّتى فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ).(۱) ففطرة كلّ إنسان تهديه إلى التوحيد ونبذ الشرك، ومن أجهزة الهداية التكوينية، العقل الموهوب للإنسان المرشد له إلى معالم الخير والصلاح.وهذا النوع من الهداية العامة لكلّ موجود فضلاً عن الإنسان . ۲. الهداية التشريعية العامّة المقصود من الهداية العامة التشريعية هو بعث الأنبياء وإرسال الرسل وإنزال الكتب لهداية الناس، وهذا الفرع من الهداية يشمل عامّة البشر ، ولا يختص بطائفة دون أُخرى، قال سبحانه:

۱ – الروم:۳۰. (۶۶) (لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنَا بِالبَيِّناتِ وَأَرْسَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ).(۱) فالآية بظاهرها تثبت الهداية العامة لكافة البشر. ۳. الهداية الخاصة وهناك هداية خاصة تختص بجملة من الأفراد الذين استضاءُوا بنور الهداية العامة، تكوينيّاً وتشريعيّها فيقعون مورداً للعناية الإلهية ، فمن اقتفى أثر الأنبياء وعمل بكتابهم يصلح لأن تشمله هداية خاصة وهو تسديده فى مزالق الحياة إلى سبيل النجاة. كما أنّ من لم يستضئ بنور الهداية التشريعية العامة يحرم من تلك الهداية الخاصّة، وهذا النوع من الهداية بيد اللّه تعالى وإليه يشير قوله سبحانه:(ولكن يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ

۱ – الحديد:۲۵. (۶۷) وَيَهْدى مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمّا كُنْتُمْ تَعْمَلُون)(۱). ولكن شموله لطائفة دون أخرى ليس اعتباطياً، بل تشمل من استضاء بالهدايتين الأُوليين فتعمه هذه الهداية الخاصة، كما أنّ من أعرض عنهما يحرم منها وتكون النتيجة خذلانه فى الحياة، وهذا النوع من الهداية تابع لملاكات خاصة (۲) فيشير إليها سبحانه عند البحث عنهما، يقول: ۱. (إنّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاء وَيَهْدِى إِليهِ مَنْ أَناب). فهذه الهداية هداية تشريعية خاصة ولا تشمل إلّا من وُصف بالانابة والتوجّه إلى اللّه كما يقول(وَيهْدى إِليهِ مَنْ أَناب)، وبما ذكرنا يتّضح معنى كثير من الآيات الباحثة عن الهداية ويصفها بأنّها بيد اللّه يضلّ ويهدى، ولكن يهدى من اكتسب لنفسه أهلية خاصة لشمولها ويحرم منها من حرم نفسه عن الهدايتين الأُوليين، وإليك باقى الآيات: _____

۱ – النحل:۹۳.

۲ – وهذه الملاكات كما تشير إليها الآيات التالية عبارة عن الإنابة ، والجهاد والاهتداء فى أمر الهداية ومقابلاتها فى أمر الضلالة. (۶۸) وقال سبحانه: (اللّهُ يَجْتَبى إِليهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدى إِليهِ مَنْ يُنيبُ).(۱) وقال سبحانه: (والّذينَ جَاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنينَ)(۲) فمن أراد وجه اللّه سبحانه يمدّه بالهداية إلى سبله. وقال سبحانه:(والَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً).(۳) وقال سبحانه: (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً * وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقَالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً).(۴) وكما أنّه علق الهداية هنا على من جعل نفسه فى مهبّ العناية الخاصّة، علّق الضلالة فى كثير من الآيات على صفات تشعر باستحقاقه الضلال وبمعنى الحرمان من الهداية الخاصة. _____

۱ – الشورى:۱۳.

۲ – العنكبوت:۶۹.

۳ – محمد:۱۷.

۴ – الكهف:۱۳و ۱۴. (۶۹) قال سبحانه: (وَاللّهُ لا يَهْدِى القَومَ الظّالِمين).(۱) وقال سبحانه: (وَيُضِلُّ اللّهُ الظّالِمينَ وَيَفْعلُ اللّهُ مَا يَشاءُ).(۲) وقال سبحانه: (وَما يُضِلُّ بِهِ إِلّا الْفاسِقينَ).(۳) وقال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَريقاً * إِلّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ).(۴) وقال سبحانه: (فَلَمّا زَاغُوا أَزاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللّهُ لا يَهْدى الْقَومَ الفَاسِقين).(۵) فالمراد من الإضلال هو عدم الهداية لأجل عدم استحقاق العناية والتوفيق الخاص، لأنّهم كانوا ظالمين وفاسقين. كافرين ومنحرفين عن الحقّ. وبالمراجعة إلى الآيات الواردة حول الهداية والضلالة يظهر أنّه سبحانه لم ينسب فى _____

۱ – الجمعة:۵.

۲ – إبراهيم:۲۷.

۳ – البقرة:۲۶.

۴ – النساء: ۱۶۸و ۱۶۹.

۵ – الصف:۵. (۷۰)

كلامه إلى نفسه إضلالاً إلّا ما كان مسبوقاً بظلم من العبد أو فسق أو كفر أو تكذيب ونظائرها التى استوجبت قطع العناية الخاصة وحرمانه منها. إذا عرفت ما ذكرنا، تقف على أنّ الهداية العامة التى بها تناط مسألة الجبر والإختيار، عامة شاملة لجميع الأفراد، ففى وسع كلّ إنسان أن يهتدى بهداها. وأمّا الهداية الخاصة والعناية الزائدة فتختص بطائفة المنيبين والمستفيدين من الهداية الأُولى. فما جاء فى كلام المستدل من الآيات من تعليق الهداية والضلالة على مشيئته سبحانه ناظرٌ إلى القسم الثانى لا الأوّل. أمّا القسم الأوّل فلأنّ المشيئة الإلهية تعلقت على عمومها بكلّ مكلّف بل بكل إنسان، وأمّا الهداية الخاصة فقد تعلقت مشيئته بشمولها لصنف دون صنف ولم تكن مشيئته، مشيئة جزافية، بل الملاك فى شمولها لصنف خاص هو قابليته لأن تنزل عليه تلك الهداية، لأنّه قد استفاد من (۷۱) الهدايتين: التكوينية والتشريعية العامتين، فاستحق بذلك العناية الزائدة. كما أنّ عدم شمولها لصنف خاص ما هو إلّا لأجل اتصافهم

بصفات رديئة لا يستحقون معها تلك العناية الزائدة. ولأجل ذلك نرى أنّه سبحانه بعد ما يقول: (فَيُضِلُّ اللّه مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشاءُ)، يذيّله بقوله: (وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)(۱)، مشعراً بأنّ الإضلال والهداية كانا على وفاق الحكمة، فهذا استحقّ الإضلال وذاك استحق الهداية. _____

۱ – إبراهيم:۴ . (۷۲)

۵ – هل الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان؟

۵ – هل الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان؟ إنّ الإيمان بالقدر من المعارف القرآنية وقد ورد في غير واحد من الآيات. قال سبحانه: (انّا كلَّ شَيْء خَلَقْناهُ بِقَدَر).(۱) و قال عزّ اسمه: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً).(۲) فالكون و ما فيه، خُلِق عن علم وتقدير، فقُدِّر كلّ _____

۱ – القمر:۴۹ .

۲ – الفرقان:۲. (۷۳)

شيء بما له من الصفات والخصوصيات، والمقادير والأشكال قبل وقوعها، وسُجِّل ذلك في كتاب خاص، قال سبحانه: (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّة فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّماءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إلاّ فِي كِتاب مُبين).(۱) وقال عزّ شأنه: (وما تسقُطُ مِنْ وَرَقَة إلاّ يَعْلَمُها وَلاَ حَبَّة في ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْب وَلاَ يابِس إلاّ في كِتاب مُبين).(۲) وقال في المصائب التي تحدث في الأرض وما يواجهه الإنسان من خير و شر:(مَا أَصابَ مِنْ مُصِيبَة فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إلاّ في كتاب مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأَها إنَّ ذلِكَ عَلى اللّهِ يَسير).(۳) فالمصائب قدرت من حيث الخصوصيات وقضي عليها بالوجود، في كتاب قبل أن يُخلق الكون وما فيه. لكن الكلام في أنّ الإيمان بالقدر هل هو ركن من _____

۱ – يونس:۶۱ .

۲ – الأنعام:۵۹.

۳ – الحديد:۲۲. (۷۴)

الأركان ، كما عليه أكثر أهل السنّة فيكون الإيمان به في جنب الإيمان باللّه وكتبه ورسله، ويوم ميعاده، أو هو أصل ومعرفة قرآنية كسائر المعارف الواردة في الكتاب العزيز؟ والظاهر هو الثاني، وأمّا الأوّل فلا دليل عليه، إذ كون شيء معدوداً من المعارف القرآنية غير كونه ركناً من أركان الإيمان، إذ رب معرفة وردت في القرآن، وليست ركناً من الإيمان، كالحياة البرزخية، والشفاعة، والتوبة، ومع ذلك فليست من أركان الإيمان. ولو كان ركناً من الأركان لجاءت الإشارة إليه في ثنايا الآيات المشيرة إلى أركان الإيمان كقوله سبحانه: (ولكنّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتابِ وَالنَّبِيِّين).(۱) وقال تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إلِيهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلائِكتهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ _____

۱ – البقرة:۱۷۷. (۷۵) أَحَد مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإلِيكَ الْمَصير).(۱) فقد جاء فيهما أركان الإيمان وهي الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم ترد فيهما أية إشارة إلى الإيمان بالقدر، فلو كانت له هذه المنزلة، لما أهملها الذكر الحكيم. وأظنّ انّ الغلو في القدر جاء من قبل الأحبار والرهبان، وعدّ من أركان الإيمان في عصر الأمويين، وقد أحصى الأحاديث الواردة فيه ابن الوزير اليمني(۲). فبلغت ۲۲۷ حديثاً، منها ۷۲ حديثاً في وجوب الإيمان بالأقدار، و۱۵۵ حديثاً في ثبوتها.(۳) وقد تفلسف بعضهم في عدّه من أركان الإيمان من أنّ الإيمان بالقدر داخل ضمناً في الإيمان باللّه، بل جزء حقيقي

---

۱ – البقرة:۲۸۵.

۲ – تقرأ ترجمة ضافيه له فى كتابنا «الزيدية فى موكب التاريخ».

۳ – نقله عنه مؤلّف الإيمان بالقدر. (۷۶)

منه ، لأنّ معناه الإيمان باحاطة علم اللّه تعالى بكلّ شىء وشمول إرادته لكلّ ما يقع من الكون ونفوذ قدرته فى كلّ.(۱) أقول: لو كان السرّ فى عدّه من أركان الإيمان، كونه تعبيراً آخر عن إحاطة علمه وشمول إرادته لكلّ شىء، فلما ذا عدل عن المعنى الواضح إلى المعنى المبهم الذى لا ينتقل إلى ما ذكره إلّا العلماء. فمقتضى البلاغة أن تُعدّ إحاطة علمه وشمول إرادته لكلّ شىء من أركان الإيمان. ومن قرأ تاريخ نشوء فكرة القدر، وانتشاره بين المحدّثين، يقف على أنّ إكبار القدر وجعله من أركان الإيمان، كان سياسة أمويه، لأجل تبكيت الناس وكبح جماحهم، والحط من مظاهراتهم أمام أعمال السلطة، ولا أظن أنّ معبد الجهنى، وغيلان الدمشقى، كانا ينكران سعة علمه، أو إرادته سبحانه حتّى ذهب الثانى ضحيّة جهاده، ومكافحته مع الظالمين وقُتل بفتوى فقيه السلطة «الأوزاعى».

---

۱ – الإيمان بالقدر:۹. (۷۷)

۶– التفويض ومضاعفاته

۶– التفويض ومضاعفاته لما كانت السلطة الأُموية مروّجة للقدر والقضاء بالمعنى السالب للاختيار وكان ذلك مخالفاً للفطرة الإنسانية وقضاء العقل وسيرة العقلاء، قام رجال أحرار فى وجه هذه العقيدة يركّزون على القول بحرية الإنسان فى إطار حياته ولكنّ السلطة اتّهمتهم بنفى القضاء والقدر ثمّ وضعت السيوف على رقاب بعضهم. هذا هو معبد الجهنى اتّهموه بنفى القدر فذهب إلى الحسن البصرى فقال له: إنّ بنى أُميّة يسفكون الدماء ويقولون إنّما تجرى أعمالنا على قدر اللّه تعالى، فقال: كذب (۷۸)

أعداء اللّه .(۱) ومثله غيلان الدمشقى فقد اُتّهم بنفس ما اُتّهم به معبد الجهنى فقد جاهر بمذهبه أيام هشام بن عبد الملك وأُحضِر الأوزاعى لمناظرته فأفتى بقتله فصُلب على باب كيسان بدمشق.(۲) ولا أظن انّ الرجلين كانا ينكران القضاء والقدر، إذ كيف يمكن لمسلم أن ينكر أصلاً قرآنياً يعد من المعارف العليا للقرآن الكريم، وإنّما كانا ينكران تبرير ظلم الظالمين وتعدّى الجائرين، بالقضاء والقدر. نعم صار ذلك سبباً بعد فترة من الزمن لظهور نظرية التفويض التى تدّعى تفويض الأُمور إلى العباد وانّه ليس للّه سبحانه أىّ صنع فى أفعالهم فجعلوا الإنسان خالقاً لأفعاله، مستغنياً عن اللّه سبحانه فى ايجاد أفعاله، فصار الإنسان على _____

۱ – الخطط المقريزية:۲/۳۵۶.

۲ – الملل والنحل للشهرستانى:۱/۴۷. (۷۹)

حسب هذه النظرية كالإله فى مجال الأفعال كما كان القضاء والقدر عند الجبريّين حاكماً على كلّ شىء ولا يمكن تغييره إلى صورة أُخرى من الصور، فالطرفان يحيدان عن جادة التوحيد ويميلان إلى جانبى الإفراط والتفريط. وإليك نقد النظرية على وجه الإيجاز: ۱. القول بالتفويض يلازم الشرك إنّ القول بالتفويض يلازم الشرك الخفى، أى الاعتقاد بوجود خالقين مستقلّين فى الخلق والإيجاد: أحدهما العلّة العليا التى خلقت الموجودات والكائنات والإنسان، والأُخرى الإنسان نفسه فإنّه يستقل بعد الخلقة فى أفعاله وتنقطع حاجته إلى اللّه بعد وجوده وهو نفس تصوير المِثْل للّه سبحانه. ۲. الإنسان فى دوّامة الحدوث إنّ الموجود الطبيعى فى النظرة الأُولى له حدوث وبقاء (۸۰)

ولكنّه فى النظرة الدقيقة كلّه حدوث بعد حدوث، لأنّ مقتضى الحركة الجوهرية هو كون العالم فى تبدل مستمر وتجدّد دائم، بأعراضها وجواهرها، فذوات الأشياء فى تجدد واندثار متواصل، وما أشبه العالم بالصورة المنعكسة فى الماء الجارى، فهى ثابتة فى النظرة الأُولى، ولكنّها فى النظرة الدقيقة متعددة متبدّلة حسب تبدّل الماء وقال سبحانه: (وَتَرى الجِبالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِى تَمرُّ مَرَّ السَّحابِ).(۱) وبما أنّ المروى عن المفوضة انّ الإنسان محتاج إلى اللّه فى حدوثه لا فى بقائه، ولذلك قالوا باستغنائه فى الفعل عنه

تعالى، فليبين موقف الوجود الإمكانى إلى الواجب تبارك وتعالى حتّى يتبيّن حاجته إليه حدوثاً و ببقاءً ونأتى بمثال: انّ مثل الموجودات الإمكانية بالنسبة إلى الواجب كمثل المصباح الكهربائى المضىء فالحس الخاطئ يزعم انّ الضوء المنبعث من هذا المصباح هو استمرار للضوء الأوّل، _____

١ - النمل:٨٨. (٨١)

ويتصور انّ المصباح إنّما يحتاج إلى المولّد الكهربائى فى حدوث الضوء دون استمراره. والحال انّ المصباح فاقد للإضاءة فى مقام الذات محتاج فى ضوئها إلى ذلك المولّد فى كلّ لحظة، لأنّ الضوء المتلألئ من المصباح إنّما هو استضاءة بعد استضاءة واستنارة بعد استنارة من المولد الكهربائى. فينطفئ المصباح إذا انقطع الاتصال بينه و بين المولد، فالعالم يشبه هذا المصباح الكهربائى تماماً فهو لكونه فاقداً للوجود بالذات يحتاج إلى العلّة(الواجب الوجود) فى حدوثه وبقائه، لأنّه يأخذ الوجود ـ عنه تعالى ـ آناً بعد آن وزماناً بعد زمان. فإذا كان هذا حال الفاعل وذاته، فكيف حال الفعل فالإنسان المحتاج إلى الواجب فى كلّ آن، محتاج إليه فى الفعل والإيجاد، لأنّ الفعل رهن الذات وموقوف عليها، والذات فى كلّ آن رهن العلّة العليا وموقوفة عليها، فينتج انّ الفعل رهن العلّة العليا وموقوف عليها. (٨٢)

٧- الأمر بين الأمرين

٧- الأمر بين الأمرين كان الرأى السائد فى المسألة أحد الرأيين، إمّا الجبر، وإمّا التفويض ;وبذلك ضلّ القائلون إمّا فى متاهات الجبر أو بوقوعهم فى حبال الشرك. ثمّ إنّ الداعى لاختيار أحد المذهبين هو انّ القائلين بالجبر زعموا أنّ صيانة التوحيد فى الخالقية (لا خالق ولا مؤثر إلاّ اللّه سبحانه) رهن القول بالجبر، فلو قلنا بالاختيار يلزم أن يكون الإنسان خالقاً لفعله، جاعلاً لعمله وهو ينافى التوحيد الأفعالى الذى يعبّر عنه بالتوحيد فى الخالقية. كما أنّ القائلين بالتفويض زعموا أنّ صيانة عدله (٨٣)

سبحانه وتنزيهه عن الظلم والتعدّى، رهن القول بالتفويض وتصوير انّ الإنسان فاعل مختار مستغن فى فعله عن الواجب سبحانه بل محتاج فى حدوثه إلى اللّه لا فى بقائه فكيف فى فعله؟ وعلى كلّ تقدير فالجبرى يعتقد بانقطاع فعل الإنسان عنه، وانّه فعل اللّه تماماً من دون أن يكون له صلة بالفاعل إلاّ كونه ظرفاً لفعل الخالق. والقائل بالتفويض يعكس الأمر ويعتقد بانقطاع نسبة الفعل إلى الخالق، وكونه مخلوقاً للإنسان تماماً من دون أن يكون هناك صلة بين فعله وخالق الكون. فالطائفة الأُولى يحسبون أنّهم بالقول بالجبر يرفعون راية التوحيد فى الخالقية، كما أنّ الطائفة الثانية يزعمون أنّهم بالقول بالتفويض ينزهون الرب عن كلّ عيب وشين. كان الرأيان سائدين ولكن أئمّة أهل البيت ضربوا على وجه الرأيين وقالوا: إنّ موقف الإنسان بالنسبة إلى اللّه غير (٨۴)

موقف الجبر المشوّه لسُمعة المذهب، وغير موقف التفويض المُلْحِق للإنسان بمكان الشرك، بل موقفه أمر واقع بين الأمرين. إنّ صيانة التوحيد فى الخالقية ليس منوطاً بالقول بالجبر، أو صيانة عدله وقسطه ليس منحصراً بالقول بالتفويض، بل يمكن الجمع بين الرأيين برأى ثالث، وهو انّ الإنسان ذاته وفعله قائمان بذاته سبحانه، و بذلك لا يصحّ فصل فعل الإنسان عنه سبحانه لافتراض قيامهما وعامة العوالم بوجوده سبحانه. وفى الوقت نفسه انّ فعله غير منقطع عنه، وذلك لأنّ مشيئة اللّه تعلّقت بنظام قائم على أسباب ومسببات، وصدور كلّ مسبب (فعل الإنسان) عن سببه وهو الإنسان، فلا يصحّ فصل المسبّب عن سببه، فالنتيجة هو انّ لفعل الإنسان صلة باللّه وصلة بسببه، وهذا هو الأمر بين الأمرين. نحن نعتقد بالتوحيد فى الخالقية الذى يعبر عنه بالتوحيد الأفعالى، ولكن لا بمعنى إنكار العلل والأسباب (٨۵)

وإنكار الروابط بين الظواهر الكونية و نفى أىّ سبب ظلّى يعمل بإذنه سبحانه، فإنّ إلغاء الأسباب مخالف للضرورة والوجدان والذكر الحكيم. بل بمعنى انّ العوالم الحسيّة والغيبيّة بذواتها وأفعالها قائمة به سبحانه، وكما انّ تأثيرها وسببيّتها بإذنه ومشيئته، فكلّ ظاهرة كونية لها نسبة إلى أسبابها، كما أنّ لها نسبة إلى خالق أسبابها، فإلغاء كلّ سبب وعلّة، ونسبة الظاهرة إلى ذاته سبحانه، غفلة عن

تقديره سبحانه لكلّ شيء سبباً، كما أنّ نسبة الفعل إلى السبب القريب وفصله عن اللّه سبحانه غفلة عن واقع السبب وانّه بوجوده وأثره قائم باللّه سبحانه، فكيف يمكن فصل أثره عنه تعالى؟! ولأجل إيضاح الموضوع نقول: إنّ الأسباب الطبيعية على أقسام: ١. سبب مؤثر ـ بإذن اللّه ـ فاقد للشعور. ٢. سبب مؤثر ـ بإذن اللّه ـ واجد للشعور، لكن فاقد للاختيار كحركة المرتعش. (٨۶) ٣. سبب مؤثر ـ بإذن اللّه ـ واجد للشعور والاختيار كتحريك الإنسان ليده. فالحرارة تصدر من النار بإذنه سبحانه بلا شعور. وحركة يد المرتعش تصدر منه مع علم الفاعل بلا اختيار. والأفعال التى يُثاب بها الإنسان أو يعاقب وبها تناط سعادته وشقاؤه يوم القيامة تصدر منه عن علم واختيار، كلّ ذلك بإذنه ومشيئته. فلا القول بالتوحيد الأفعالى (لا مؤثر ولا خالق إلاّ هو) يصادم الاختيار، لأنّ حصر الخالقية المستقلّة باللّه لا ينافى نسبة الخالقية غير المستقلة وغير النابعة من ذاته إلى الإنسان، ولا القول بالاختيار يزاحم سلطانه وقدرته، فالفعل فعل الإنسان، لأنّه السبب القريب وفى الوقت نفسه منسوب إليه سبحانه لكونه السبب البعيد(١) الذى أوجد الإنسان وأفاض عليه

١ – قد استخدمنا«السبب البعيد» لأجل تقريب المطلب، وإلاّ فالواقع فوق ذلك. (٨٧)

القدرة وزوّده بالاختيار. هذا بيان موجز لهذا القول الموروث من أئمّة أهل البيت واستقبل المفكّرون من أهل السنّة هذه الفكرة، كالإمام الرازى و الشيخ عبده فى رسالة التوحيد، لمّا رأوا انّ فى القول بالجبر الأشعرى مضاعفات لا تحتمل، وقد شاع ذلك القول بين المفكّرين المصريّين فى العصر الأخير لما تأثّروا بالأفكار الغربية المروّجة للحرية والاختيار. وتتجلّى قيمة هذا المذهب ببيان برهانه العقلى أوّلاً، وتحليل ما يدلّ عليه من الذكر الحكيم ثانياً، والأحاديث الصحيحة ثالثاً. ١. نسبة الفعل إلى اللّه بالتسبيب وإلى العبد بالمباشرة إنّ نسبة فعل العبد إلى اللّه بالتسبيب وإلى العبد بالمباشرة، فإنّ اللّه سبحانه وهب الوجود والحياة والعلم والقدرة لعباده وجعلها فى اختيارهم، وانّ العبد هو الذى (٨٨)

يصرف الموهوب فى أى مورد شاء فيُنسب الفعل إلى اللّه تعالى لكونه مفيضَ الأسباب، وإلى العبد لكونه هو الذى يصرفها فى أى مورد شاء.وهناك مثال يبين حال النظريات الثلاث: الجبر، والتفويض، والأمر بين الأمرين. لو فرضنا شخصاً مرتعش اليد، فاقد القدرة، فإذا ربط رجل بيده المرتعشة سيفاً قاطعاً وهو يعلم انّ السيف المشدود فى يده سيقع على آخر ويُهلكه، فإذا وقع السيف وقتله، ينسب القتل إلى من ربط يده بالسيف، دون صاحب اليد الذى كان مسلوب القدرة فى حفظ يده. ولو فرضنا أنّ رجلاً أعطى سيفاً لمن يملك حركة يده وتنفيذ إرادته فقتل هو به رجلاً، فالأمر على العكس، فالقتل ينسب إلى المباشر دون من أعطى. ولكن لو فرضنا شخصاً مشلول اليد (لا مرتعشها) غير قادر على الحركة إلاّ بإيصال رجل آخر التيّار الكهربائى إليه ليبعث فى عضلاته قوّة ونشاطاً بحيث يكون رأس السلك (٨٩)

الكهربائى بيد الرجل بحيث لو رفع يده فى آن ، انقطعت القوة عن جسم هذا الشخص فى الحال وأصبح عاجزاً. فلو أوصل الرجل تلك القوة إلى جسم هذا الشخص، فذهب باختياره وقتل إنساناً، والرجل يعلم بما فعله، ففى مثل ذلك يستند الفعل إلى كلّ منهما، أمّا إلى المباشر فلأنّه قد فعل باختياره وإعمال قدرته، وأمّا إلى الموصل فلأنّه أقدره وأعطاه التمكّن، حتّى فى حال الفعل والاشتغال بالقتل، كان متمكناً من قطع القوة عنه فى كلّ آن شاء وأراد. فالجبرى يمثّل فعل العبد بالنسبة إلى اللّه تعالى كالمثال الأوّل، حيث إنّ اليد المرتعشة فاقدة للاختيار ومضطرة إلى الإهلاك. كما أنّ التفويضى يمثّل نسبة فعله إليه كالمثال الثانى، فهو يصور أنّ العبد يحتاج إلى إفاضة القدرة والحياة منه سبحانه حدوثاً لا بقاءً والعلّة الأُولى كافية فى بقاء القدرة فيه إلى نهاية المطاف، كما أنّه كان الأمر فى المثال كذلك، فكان الإنسان محتاجاً إلى رجل آخر فى أخذ السيف، وبعد الحصول (٩٠)

عليه انقطعت حاجته إلى المعطى. والقائل بالأمر بين الأمرين يصوّر النسبة كالمثال الثالث، فالإنسان فى كلّ حال يحتاج إلى إفاضة القوة والحياة منه إليه بحيث لو قُطع الفيض فى آن واحد بطلت الحياة والقدرة، فهو حين الفعل يفعل بقوة مفاضة منه وحياة كذلك من غير فرق بين الحدوث والبقاء . والحاصل إنّ للفعل الصادر من العبد نسبتين واقعيتين، إحداهما: نسبته إلى فاعله بالمباشرة باعتبار صدوره منه باختياره وإعمال قدرته ;وثانيتهما: نسبته إلى اللّه تعالى باعتبار أنّه معطى الحياة والقدرة فى كلّ آن وبصورة مستمرة حتى

فى آن اشتغاله بالعمل.(۱) وهناك مثال آخر ذكره شيخنا المفيد، فقال: نفترض انّ مولى من الموالى العرفيين يختار عبداً من عبيده ويزوّجه إحدى فتياته ثمّ يقطع له قطيعة ويخصه بدار _____

۱ - المحاضرات:۲/۸۷ـ۸۸ ;أجود التقريرات: ۱/۹۰. (۹۱)

وأثاث وغير ذلك ممّا يحتاج إليه الإنسان فى حياته إلى حين محدود ولأجل مسمّى. فإن قلنا إنّ المولى وإن أعطى لعبده ما أعطى وملّكه ما ملك، لكنّه لا يملك، وأين العبد من الملك؟ كان ذلك قول المجبرة. وإن قلنا: إنّ المولى بإعطائه المال لعبده وتمليكه، جعله مالكاً وانعزل هو عن المالكية وكان المالك هو العبدُ، كان ذلك قول المعتزلة. ولو جمعنا بين الملكين بحفظ المرتبتين، وقلنا:إنّ المولى مقامه فى المولوية، وللعبد مقامه فى الرقية، وانّ العبد يملك فى ملك المولى، فالمولى مالك فى حين انّ العبد مالك، فهنا ملك على ملك. كان ذلك القول الحق الذى رآه أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ وقام عليه البرهان.(۱) وفى بعض الروايات إشارات واضحة إلى الأمر بين _____

۱ - الميزان:۱/۱۰۰. (۹۲)

الأمرين. روى الصدوق فى توحيده عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ قال: «قال اللّه عزّ وجلّ: يا ابن آدم بمشيئتى كنت أنت الذى تشاء لنفسك ما تشاء، وبإرادتى كنت أنت الذى تريد لنفسك ما تريد».(۱) ترى أنّه يجعل مشيئة العبد وإرادته تلوَ مشيئة اللّه سبحانه وإرادته، ولا يعرّفهما مفصولتين عن اللّه سبحانه، بل الإرادة فى نفس الانتساب إلى العبد، لها نسبة إلى اللّه سبحانه. ۲. الأمر بين الأمرين فى الكتاب العزيز إذا كان معنى الأمر بين الأمرين هو وجود النسبتين فى فعل العبد: نسبة إلى اللّه سبحانه ونسبة إلى العبد من دون أن تزاحم إحدى النسبتين، النسبةَ الأُخرى، فقد قرره الكتاب العزيز ببيانات مختلفة: _____

۱ - التوحيد:۳۴۰، باب المشيئة والإرادة، الحديث ۱۰. (۹۳) ۱. انّه ربما ينسب الفعل إلى العبد وفى الوقت نفسه يسلبه عنه وينسبه إلى اللّه سبحانه، يقول: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبلِىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).(۱) ولا يصحّ هذا الإيجاب(إِذْ رَمَيْتَ) فى عين السلب(وما رَمَيْتَ) إلّا على الوجه الذى ذكرنا،وهذا يعرب عن أنّ للفعل نسبتين وليست نسبتُه إلى العبد، كلَّ حقيقته وواقعه، وإلاّ لم تصح نسبته إلى اللّه، كما أنّ نسبته إلى اللّه ليست خالصة (وإن كان قائماً به تماماً) بل لوجود العبد وإرادته تأثير فى طروء عناوين عليه. ۲. قال سبحانه: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْم مُؤْمِنِين).(۲) _____

۱ - الأنفال:۱۷.

۲ - التوبة:۱۴. (۹۴) فالظاهر انّ المراد من التعذيب هو القتل، لأنّ التعذيب الصادر من اللّه تعالى بأيدى المؤمنين ليس إلاّ ذاك، لا العذاب البرزخى ولا الأُخروى فانّهما راجعان إلى اللّه سبحانه دون المؤمنين، وعلى ذلك فقد نسب فعل واحد(التعذيب) إلى المؤمنين وخالقهم ولا تصح هاتان النسبتان إلاّ على هذا المنهج، وإلاّ ففى منهج الجبر لا تصح النسبة إلاّ إليه سبحانه. وفى منهج التفويض على العكس، والمنهج الذى يصحّح كلتا النسبتين هو منهج الأمر بين الأمرين. ۳. الأمر بين الأمرين فى الروايات لقد تضافرت الروايات عن أئمّة أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ فى فعل الإنسان فيما يثاب به ويعاقب عليه، بانّه أمر بين الأمرين، وقد جمع الصدوق القسم الأوفر من الروايات فى توحيده، والعلاّمة المجلسى فى بحاره، ونحن نذكر رواية واحدة ذكرها صاحب «تحف العقول» و هى مأخوذة عن (۹۵) رسالة كتبها الإمام الهادى ـ عليه السَّلام ـ فى نفى الجبر والتفويض، ومما جاء فيها: فأمّا الجبر الذى يلزم من دان به الخطأُ، فهو قول من زعم انّ اللّه عزّ وجلّ أجبر العباد على المعاصى وعاقبهم عليها، ومن قال بهذا القول فقد ظلم اللّه فى حكمه وكذّبه وردّ عليه قوله: (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)(۱) وقوله: (ذَلِكَ بِمَا قَدَمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاّم لِلْعَبِيدِ)(۲) وقوله: (انّ اللّهَ لا يَظْلِمُ النّاسَ شَيئاً وَلَكنَّ الناسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(۳) فمن زعم انّه مجبر على المعاصى، فقد أحال بذنبه على اللّه، وقد ظلمه فى عقوبته، ومن ظلم اللّه فقد كذب كتابه، ومن كذب كتابه فقد لزمه الكفر بإجماع الأُمّة . ومن زعم انّ اللّه تعالى فوّض أمره ونهيه إلى عباده فقد _____

۱ – الكهف:۴۹.

۲ – الحج:۱۰.

۳ – يونس:۴۴. (۹۶)

أثبت عليه العجز . لكن نقول: إنّ اللّه عزّ وجلّ خلق الخلق بقدرته، وملّكهم استطاعة تعبّدهم بها، فأمرهم ونهاهم بما أراد، و هذا، هو القول بين القولين ليس بجبر ولا تفويض. تمّ الكلام فى مسألة الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين صبيحة يوم الأحد فى السادس والعشرين من ربيع الثانى من شهور عام ۱۴۲۳هـ جعفر السبحانى قم ـ مؤسسة الإمام الصادق ـ عليه السَّلام ـ

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخريّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹